عزت القمحاوي
يكفي أننا معًا
رواية
الدار المصرية اللبنانية

يكفي أننا معًا

رواية

fb/mashro3pdf

القمحاوي، عزت.
يكفي أننا معًا: رواية / عزت القمحاوي
.- ط ١.- القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2017.
216 ص؛ 20 سم.
تدمك: 2 - 101 - 795 - 977 - 978
١- القصص العربية
أ- العنوان 813
رقم الإيداع: 26943 /2016

©

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: ربيع ثان 1438 هـ - يناير 2017م

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،
بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

fb/mashro3pdf

عزت القمحاوي

يكفي أننا معًا

رواية

الدار المصرية اللبنانية

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

1

تخصص جمال منصور في قضايا الأحوال الشخصية، ولم يترافع في حياته إلا عن النساء. يصل إلى مكتبه في السابعة مساءً، فيجد غرفة الاستقبال مزدحمة بالموكلات. تكون قهوته جاهزة، يشربها ببطءٍ وتلذُّذ، ويشرع في تقليب أحد كتب القانون أو قراءة صفحات من رواية، دون أدنى إحساس بالحرج من المنتظرات اللائي يبدأن في التعارف وتبادل قصص زيجاتهن المؤلمة. كان يعرف أن هذا الاختلاط للحكايات يجعله يخسر الكثير من الزائرات اللائي ينسحبن، بعد أن يستمعن إلى الحالات الأقسى من حالاتهن؛ مقتنعات بتفاهة الأسباب التي جعلتهن يطلبن الطلاق. كان يعرف هذا، ولم يسعَ إلى تغيير عاداته، بل كان يعتبر أن هاتيك العائدات إلى بيوتهن من دون لقائه هن أُمَّته الحقيقية، وعودتهن إلى أحضان أزواجهن هي جوهر رسالته.

في التاسعة، لا يكون قد تبقى في المكتب إلا المُصرَّات على الطلاق والأرامل اللائي يعانين من مشاكل الميراث مع إخوة الأزواج المتوفين. يبدأ في استقبالهن ويستمع إلى القصص. لا يُقاطع المتكلمة، لا يدافع عن الزوج الحي أو عن أشقاء الزوج الميت،

fb/mashro3pdf

يسألها عن المطلوب؛ فتضع قائمة طويلة. يستوقفها بإشارة من يده، وبعد لحظة صمت يتكلم:

ـ لكي أكون صريحًا معكِ، فإننا لن نستطيع حمل بطيختين في يدٍ واحدة.

ويشرع في شرح خطته في المعركة: «سنرفع دعوى خُلع أولًا، ثم نطالب بنفقة الأولاد»، أو: «سنطلب الأملاك المسجلة باسم المرحوم، أما السير في حصر أملاك أسرته وتحديد حصته فيها فسوف يستغرق وقتًا أطول، ويمكن أن يعرقل حصولك على الحق الواضح».

بعد أن ينتهي من استقبال آخر النساء الحزينات، يستدعي السكرتير. يأتي الرجل جاهزًا بقائمة دعاوى الغد. ينطق اسم الموكلة. ويرد جمال بجملة واحدة: «تأجيل للاطلاع.. تقديم إعلام الوراثة.. طلب استجواب الشهود»، وفي النهاية يدفع إليه السكرتير بملف القضية المحجوزة للمرافعة، ثم ينسحب ويتركه وحيدًا أمام جهاز الكمبيوتر.

منذ سنوات طويلة لم يكتب مذكرة جديدة، لديه نماذج عدة من المذكرات: الحب، البخل، الخيانة، العنف، زنى المحارم. الموضوعات الأساسية في حياة الناس التي لا تخرج عنها الدراما وقضايا الأحوال الشخصية.

fb/mashro3pdf

يستخرج من ذاكرة الكمبيوتر مذكرة قضية شبيهة سابقة، يستبدل الأسماء، ويُعدِّل الاختلافات الطفيفة في التفاصيل طبقًا لإفادة الموكلة، ثم يولي كل عنايته إلى جوهر المرافعة التي سيرتجلها أمام المحكمة، والتي ستجعله يكسب القضية لصالح موكلته، وهذا يتوقف على المكان الذي سيُباغت فيه القاضي بأمثولة البطيختين. أحيانًا يضعها في البداية: «لا يمكن للمرء أن يحمل بطيختين في يدٍ واحدةٍ، وموكلتي يا سيادة القاضي ترى استحالة العيش مع رجل يحمل بطيختين»، ويسكت متنفسًا بعمقٍ، متلذذًا بصمت القاعة قبل أن يستأنف: «رجل رقيق الحال لا يستطيع أن ينهض بنفقة زوجة واحدة، يُقدم بجسارة على الزواج من ثانية!».

أحيانًا، يبدأ المرافعة برواية الحكاية ابتداءً من لحظة التعارف، ثم بداية الزواج السعيد، إلى أن يصل إلى اللحظة التي بدأ فيها الزوج في التغيُّب عن البيت والعودة بآثار غرامياته، وعند هذه الذروة، يصمت حتى يمنح القاعة فرصة تأمل الدرك الذي انحدر إليه الزوج، ثم يُطلق حجته في وجه القاضي: «هل بوسع أحد حمل بطيختين في يده؟!» يأخذ نفسًا ثم يستأنف: «هذا الزوج يا سيدي يصر على حمل بطيختين وثلاث وأربع، حتى بدأ يخلط وينادي هذه الزوجة التعسة بأسماء عشيقاته العابرات»، ويشرع في ذكر الأضرار النفسية والمادية التي وقعت على موكلته وجعلتها تطلب الطلاق، ويهتف متضرعًا: «إنني يا سيادة المستشار أهيب بضمير المحكمة أن تُخلِّص موكلتي التي

fb/mashro3pdf

تعاني من المرض، وهذه تقارير الأطباء أودعها أمانة الجلسة إذا أذنتم لي في نهاية المرافعة».

في بعض الأحيان يجعل من البطيختين مسك الختام؛ بعد أن يعرض القضية بحذافيرها، يعدد طلبات الموكلة، ثم يستدرك: «ولكنني أطلب من عدالة المحكمة إجراء نقفة وبشكلٍ عاجلٍ لأبناء موكلتي، ثم النظر بعين العدالة للطلبات الأخرى؛ فالقضية معقدة، ولا يمكن حمل بطيختين في يدٍ واحدة».

ذات مرة، كانت الموكلة سمينة جدًّا، وكان القاضي شابًّا مُرقى حديثًا، أخذته خفة الشباب بعيدًا عن الرصانة الواجبة للمنصة. وقال له ساخرًا: «أوافقك تمامًا يا أستاذ، لو كانت البطيخات بهذا الحجم سيصعب على المرء أن يحمل واحدة، وليس اثنتين».

لا يشبه جمال منصور أبناء جيله من المحامين، بل ينتمي إلى جيلٍ انقرض مع تدهور تقاليد المهنة. يقرأ كل ما تقع عليه يداه، من كتب القانون إلى الفكر، والروايات، والنقد الأدبي والبلاغة، يعرف أن اللغة خيالية، لكنها تزعم مطابقة الواقع، ولأن القوانين مصنوعة من اللغة، اعتبرها خيالية كذلك؛ ولذا فقد آمن بأن الفيصل ليس القانون وليست الوقائع، بل براعة المحامي الذي يعرف كيف يحكي حكاية موكلته أمام القاعة، وكيف يستطيع إعادة خلق الواقع على هواه في مذكرة مقنعة.

fb/mashro3pdf

منذ بداية حياته العملية لاحظ أن الناس ترتبك من مراوغات المجاز؛ ولذلك تتلقف القوالب الجاهزة وتتشبث بها كما يتشبث الغريق بقشة. وقد وجد ضالته في قالب البطيخ الذي يجعل القاعة تأنس إلى مرافعته.

لم يعد يتذكر إن كانت العبارة إلهامًا توصَّل إليه بنفسه أم مثلًا شعبيًّا سمعه ذات مرة، لكنها ارتبطت به حتى بدا للآخرين نبيًّا اقتصرت رسالته على هذه العبارة الوحيدة. بفضلها لم يخسر قضية. استفادت منها موكلاته، وكسب من وراثها الكثير من المال، وكان من الممكن أن تمضي حياته على نحو أفضل، لو لم يكن أول المؤمنين بها.

هو الشقيق الأكبر لولدين وبنت. ولدته أمه، ثم انقطع حملها. لم يعرف الأطباء عيبًا أو سببًا لذلك، فامتثلت للقضاء، لكنها حملت مجددًا بعد سبعة عشر عامًا. أنجبت الثلاثة الآخرين في تتابع، كأنها كانت بصدد مهمة لا بد أن تنجزها قبل أن تموت.

رحلت ذات صباح، ولحق بها أبوه في المساء، مما خلق أسطورة حول حبهما، ولم يحاول جمال أن ينفي الأسطورة أو يؤكدها، فقد وجد نفسه أبًا لثلاثة. كان من الممكن أن يكونوا أبناءه هو. كان دخله محدودًا في بداية حياته العملية، وكلما فكَّر في الزواج قال لنفسه: «لا يمكن حمل البطيختين في يدٍ واحدة». لكنه لم يقترب من عتبة الستين أعذر؛ فبعض أجمل الموكلات يُفضِّلن دفع الأتعاب بطريقة غير معتادة، وبعضهن يُقدِّمن له هذا المعروف ككلمة شكر فوق الأتعاب

fb/mashro3pdf

المالية، وبعضهن كن يتدربن معه على مهارة حمل البطيختين، وعندما تشعر الواحدة منهن بغبطة القصاص من الزوج الخائن، تتراجع عن طلب الطلاق، وتعود إلى حياتها في سلام.

منذ سنوات، بدأ يراقب الزحف الوئيد لشيخوخته، برضا زوجة أخذت بثأرها، ووحشة مُطلَقة تتحسس الجانب الخالي من السرير. خطَّط للتقاعد في الخامسة والستين، ودون يقين بأنه سيعيش حتى تلك السن وضع خطة للادخار، بحسابات دقيقة لكل شيء، حتى تكاليف جنازته.

ما لم يكن في حسبانه، هو إشراقة عينين، بدَّدت عتمة مكتبه ذات ليلة.

fb/mashro3pdf

2

بعد أن غادرت آخر الموكلات، استدعى السكرتير وأخبره بأنه يستطيع الانصراف. شكره الرجل وانسحب من أمامه. أفرغ سلال القمامة. اطمأن على أقفال صنابير المياه بالمطبخ والحمَّام، ثم خفَّض إضاءة الصالة وانصرف.

كان البرد يخترق اللحم ليستقر مباشرة في العظام. شغَّل جهاز المدفأة الكهربائية، وأحكم على نفسه باب غرفته، واستغرق في دراسة قضية. أخذ يستعرض المستندات، يضع علامات بالقلم الفسفوري عند النقاط المهمة. ثم انهمك في ترتيب مرافعته في ذهنه. وعندما تعجبه جملة، يقوم ويؤديها تمثيلًا وسط صمت مثالي لجمهور في خياله.

فجأة سمع طرقًا خفيفًا على الباب. خرج من غرفته يتلمس طريقه في الصالة المعتمة. كانت الطارقة فتاة صغيرة نحيلة.

لم يستغرب؛ فقد ترافع من قبل في قضايا فتيات يتيمات تعرضن لجشع الأعمام، أو سفاهة الأمهات الأرامل الماجنات، لكنها لم تكن واحدة من هاتيك. فتح لها الباب، ثم أضاء نور الصالة وسار أمامها إلى غرفته.

fb/mashro3pdf

كانت ترتدي بالطو من الجوخ الأسود الفخم، يبرز من طوقه شال من الحرير الهندي رملي اللون بنقوش فراشات برتقالية. سبقها عطر الجاردينيا الأنيق كحرس شرف انتشر في غرفته قبل أن تدخل.

تقدم من كرسيه، جلس متحصنًا وراء مكتبه، وأشار إليها بالجلوس. فتحت أزرار البالطو، فبدت أناقة فستان قطني سخي بلون بطيخي، يسترخي فوق صدر صغير في حجم خوختين صلبتين. جلست واضعة ساقًا على ساق، ومرت لحظات صمت، لم تقل شيئًا ولم يسألها عن شيء. أخذ يتأمل انسياب شعرها المسترسل على كتفيها، يتنفس عطرها بعمق، ويسترق النظرات إلى وجهها ذي الفم المنمنم والأنف الصغير الحاد، والعينين الكبيرتين ببؤبؤ أسود وبياض صاف.

«طفلة» همس لنفسه، لكنه لم يستطع أن يمنع عينيه من النظر إليها لمحاولة الإمساك بالشيء الجذاب في هذا الضرب الملغز من الأنوثة والغلامية، مستريحًا إلى اعتبارها الجوهر الحزين للجمال المنسي، كالفن الراقي قليل الجمهور. أربكته نظرتها المستريبة وأخرجته من تأملاته.

بادرها:

ـ تفضلي.

ـ أنا خديجة البابي، طالبة دكتوراه.

فتح فمه مندهشًا:

fb/mashro3pdf

ـ مستحيل، تبدين في الثامنة عشرة.

تضرَّج وجهها، وقالت:

ـ أنا في السابعة والعشرين. أطروحتي عن عمارة المحاكم وعلاقتها بالتحولات السياسية في مصر خلال مئة عام.

أومأ لها طالبًا المزيد من التوضيح؛ فشرعت تعرض فكرة أطروحتها، التي تنطلق من بنية النظام السياسي وتوجهاته وفكرته عن العدالة، وانعكاس ذلك على عمارة المحاكم، الطراز المعماري، والتخطيط الداخلي، وتصميم قاعات التقاضي، وموقعها داخل البناء، وطراز الأثاث، والألوان. وجد نفسه أمام مراهقة تتكلم كالكبار، لاحت على وجهه ابتسامة، لكنه التزم الجدية، ولم يلبث أن تحول انضباطه إلى إعجاب حقيقي. تركها تواصل حديثها، مستغرقًا في دهشته؛ فسألته:

ـ هل تعتقد أن هناك صلة بين عمارة المحكمة وفكرة العدالة؟

لم يرد، فارتبكت وبدا عليها الإحباط:

ـ يبدو أنني لم أنجح في إثارة حماسك للموضوع.

رفع يديه، وحركهما علامة النفي، هاتفًا:

ـ بالعكس.

ثم أرسل بنظرته بعيدًا، مسترجعًا سؤالها، وأجاب:

fb/mashro3pdf

ـ نعم، بنيان المحكمة يعكس حالة المجتمع وحالة القضاء فيه.

وانتبه إلى أنها استطاعت أن تضع يده على سبب نفوره من بعض المحاكم الجديدة، التي يرفض دخولها ويسميها أسواقًا عشوائية، تتلاطم داخلها أفواج المتخاصمين، ولا يمكن تمييز باب قاعة الجلسات من أبواب غرف الأرشيف والمكاتب المكتظة بالموظفين. فكَّر: «الحياة أنساق، لا شيء يتغير منفردًا بمعزل عن بقية المجالات». تطلع إليها مجددًا، وقال:

ـ الذي تدهور ليس مباني المحاكم فحسب، نظافة المحكمة، لغة القضاة والمحامين، ملابسهم، قد تبدو خارج بحثك، لكنها في صلب فكرة العدالة حقيقة.

ـ بوسعي أن أشير إليها في التمهيد، لكن بحثي ينصبُّ على العمارة والسياسة.

وشرعت تشرح بتوسع، بينما يُنصت بانتباهٍ إلى ملاحظاتها عن طُرز المحاكم المختلفة؛ تلك التي بُنيت على طراز نقي، وتلك التي تعاني من تلفيقات، وتلك التي بلا طراز محدد، عن ارتفاع الأعمدة في بعض المحاكم وضآلتها في أخرى، عن مواقع القاعات التي يُشبه بعضها قدس الأقداس في عمق المعبد، وتلك المطروحة بلا هيبة عند انعطافة ممر ضيق. حدَّثته عن الأناقة المتقشفة بخاماتها الملائمة للمناخ الحار المترب، وبين الفخامة السفيهة بخاماتها الباهظة سيئة

fb/mashro3pdf

التنفيذ. كانت تتدفق في الحديث، بشكلٍ أرجعه إلى افتتانها بنفسها، أو إلى تشجيعه لها من خلال استماعه إليها بكل حواسه.

ولم يتبادر إلى ذهنه مطلقًا أنها قد تكون معجبة به هو؛ الكهل، الأصلع، خشن الملامح، الذي لا يستطيع حمل بطيختين في يده.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

3

عادت من اللقاء مُحبطةً.

هاتفت أقرب صديقاتها. «عاملني بإهمال، أخطأ في تقدير عمري بشكل مأساوي، لم ينتبه إلى أنه رآني في المحكمة من قبل، لم ينتبه للزينة التي قضيت ساعات في إعدادها». سوزي المتزوجة من رجل عجوز اتهمتها بالجنون: «لا ترتكبي غلطتي». كانت قد حكت لها من قبل عن إعجابها بجمال عندما رأته للمرة الأولى: «I have a crush on him»، واعتبرت سوزي الأمر نزوة سرعان ما تقلع عنها، لكنها أخذت تتردد على محكمة الأحوال الشخصية بشبرا مرات عدة، تتأمل المداخل والأبهاء والقاعات، وتسجّل ملاحظاتها، وكانت ترى قضاة يمرقون دون أن تلحظهم عين، بينما يدخل هذا المحامي بهالة من الهيبة في بدلته التي تجاوزتها الموضة، لكنه يبدو أنيقًا.

ذات مرة سارت وراءه. دخل استراحة المحامين التي تشبه برج بابل بصخبها غير المفهوم. بمجرد دخوله اختفى هشيم الكلام وحلّ الصمت كأنما بضغطة زر، ثم شرع المحامون في الترحيب به، وأخذت الأصوات تعاود ارتفاعها مجددًا، لكن ليس كاللحظة التي دخل فيها.

fb/mashro3pdf

أصبح الضجيج محكومًا بسلطة حضوره. كان يرتدي بدلة من الكتان البني المقلم بأزرق مع قميص له زرقة القلم النحيل في البدلة، يسدل الروب الأسود على كتفه. وبسبب طول قامته أو بسبب قرارها المسبق بالإعجاب به لم تَرَ كرشه؛ البطيخة الصغيرة التي بدت واضحة عندما جلس.

ظلت واقفة بباب الغرفة تراقبه من بين أكتاف الداخلين والخارجين. بعد دقائق رأته ينظر في ساعته، ووقف يرتدي الروب. خرج متوجهًا إلى قاعة الجلسة يتبعه نصف مَن كانوا بالغرفة. مشت وراءهم، واكتشفت كيف تتحول القاعة إلى مسرح هو ممثله الوحيد، والجميع جمهوره؛ المتقاضون ومرافقوهم وزملاؤه المحامون، والقضاة.

واظبت على الحضور إلى المحكمة، تنتظر إطلالته، ترمقه من تحت رموشها الطويلة، وعندما ينتبه إليها تزوغ وتختفي خلف الآخرين. التقت عيونهما أكثر من مرة، كانت تلم نظرتها جافلة، بينما لا يبدو عليه أنه يتذكرها أو يعيرها اهتمامًا.

هي الابنة الثانية لأسرة ثرية. لم يتمكن والدها من حمل بطيختين في يده، وفضَّل تركيز كل اهتمامه لإعادة ترميم مكانة العائلة. كان قد تخرج في كلية الطب، عندما رحل أبوه وترك له بعض الديون ومصنعًا للكريستال على حافة الإفلاس. تولى تجديد المصنع، وتحديث موديلات منتجاته من أطقم المائدة والثريات، كما أضاف منتجات جديدة من الدمى الصغيرة والحلي ومقابض الشعر، ولم يفكر بالزواج

fb/mashro3pdf

حتى تجاوز الأربعين، عندما التقى شابّة في الثلاثين تعمل بالشركة السياحية التي تتولى ترتيب حجز رحلاته إلى الخارج.

أنجبا عزة بعد عام واحدٍ من الزواج، وبعد سبع سنوات جاءت خديجة. فتحت عينيها على أم حقيقية، وطفلة تُجرب معها لعبة الأمومة، أما أبوها الذي صار أكثر اطمئنانًا على مصنعه، فقد اكتشف معها مشاعر الأبوة كما لم يفعل مع عزة، يتحرك بها أينما ذهب، حتى عندما يعقد اجتماعًا، يضع لها كرسيًّا صغيرًا إلى جانبه، وسرعان ما تحملها الأحاديث التي لا تفهمها إلى النوم.

ظلت، حتى الخامسة، تنام في المنتصف بين أبيها وأمها، متعلقة برقبته، وبعد أن بذلت الأم مجهودًا كبيرًا لإقناعها بالنوم في غرفة مستقلة، كانت لا تغفو، دون أن يستلقي أبوها بجوارها، ويقرأ لها من القصص التي تحملها إلى عالم الأحلام، وكثيرًا ما كانت تسير في قلب الليل نصف نائمة، وتتسلل إلى غرفة أبويها، وتستلقي بينهما.

خمس عشرة سنة مضت على رحيل أبيها، ولم تزل تتذكر ملمس شعر صدره، والرائحة الكتيمة لخلطة عرقه مع العطر، ورائحة تخمُّر فمه المتبّلة برائحة السجائر، عندما يستيقظ.

«لن أستسلم» قالت في نهاية المكالمة مع سوزي. وأخذت تتفحص ذاكرتها، تستعرض مَن عبروا حياتها كالبروق، سواء الذين تقدموا لخطبتها بطريقة تقليدية، أو أولئك الذين أحبتهم وأقامت

fb/mashro3pdf

معهم علاقات نصف بريئة عابرة، أحدهم كان لا يكف عن تقبيل كعبي رجليها، مع ذلك لم ترَ في أحدٍ منهم ظلّ الرجل الذي تنتظر.

أخذت تترصّد وصول جمال إلى المحكمة، حضرت بعض مرافعاته، لكنها لم تقبل بفرض نفسها عليه مجددًا، ولم تعرف إن كان غير منتبهٍ لوجودها، أم يتجاهلها عامدًا. تذكرت ما قالته سوزي، عندما رأت منها هذا الحماس: «أنتِ لستِ مغرمة به، بل تريدين تذوق شيءٍ رأيته يقع على الآخرين، ولم تتذوقيه أبدًا: الأذى!».

بعد أكثر من شهر، أصابها الفتور من متابعة رجل يبدو مشغولًا بنفسه إلى حدٍّ لا يترك مساحة لامرأة بجواره. «هل حقًّا، تحركني الرغبة في إيذاء نفسي؟!» تساءلت غاضبة، وقررت أن تنساه. انهمكت في دروسها بكلية الفنون الجميلة، وأخذ العام الدراسي يقترب من نهايته، وتزايد اعتذار الأساتذة عن محاضراتهم، وفي كل مرة يقترحونها للحلول مكانهم، ولم ترفض أو تستنكر ذلك، حتى عندما يستدعونها بعد أن تنصرف؛ لأنهم يعرفون أنها تسكن على بُعد خطوات من الكلية.

استيقظت ذات يوم بحزن يثقل قلبها، لا تدري مصدره، لكنها تعرف بينها وبين نفسها، أنها لم تنجح في إقصاء جمال بالكامل عن خيالها. تطلعت إلى الساعة. العاشرة. واليوم ستستقبل ثلاثًا من صديقاتها على الغداء، لكن عليها أن تخرج لشراء المكونات الطازجة للسلطات التي تتفنن في إعدادها، بالإضافة إلى الشوكولاتة والهدايا

fb/mashro3pdf

الصغيرة لأطفال صديقاتها الذين تبتهج بوجودهم، وعليها أن تراقب إجراءات نظافة البيت، وتشرف على تغيير الورد، والمفارش، ونظافة أدوات المائدة.

عندما حضرت الصديقات كان شحوب خديجة أول ما علّقن عليه؛ كل منهن بطريقتها. لم تنكر، وبررت الأمر بكثرة العمل على الدكتوراه التي أهملتها، وتزايد مسئولياتها في الكلية. حكين لها عن خططهن للإجازة؛ فتذكرت أنها لم تخطط بعد الرحلة الصيفية، وهي المسئولية التي تتحملها منذ سنوات طويلة، بالأحرى لأنها هي التي ألحت من أجل استئناف الرحلات التي اعتادتها في وجود أبيها.

كان رحيله زلزالًا ضرب حياة خديجة. سقطت بنت الثانية عشرة في حالة من العزلة، لا تتكلم إلا لترد بالضروري، لا تتذكر لحظة من حياة أبيها إلا وتبكي. صارت مشكلة إضافية للأم التي سقط على رأسها عبء إدارة المصنع. توجهت بها إلى طبيب نفسي، لكنها قاومت العلاج. بعد عامين قالت لأمها فجأة: «أريد أن نسافر إلى لشبونة». توجّست الأم من طلبها، وتوقعت أن تسوء حالتها؛ فلشبونة كانت الرحلة الأخيرة في وجود أبيها، لكنها لم تستطع أن ترد طلبها. وخلال تلك الرحلة، اكتشفت أن حالتها بدأت بالتحسن.

بعد ذلك العام، انتظمت الرحلات مجددًا، وتوازنت خديجة مع الإيمان بأن أباها في سفر طويل، وأنها ستعثر عليه ذات يوم، في واحدة من المدن التي دللها فيها. ومنذ سنوات أخذت مسئولية

fb/mashro3pdf

التنظيم. تختار الوجهة، وتتولى ترتيب كل شيء؛ من بطاقات الطيران، إلى بطاقات القطارات، إلى الفنادق، وحفلات الموسيقى، والمطاعم الشهيرة التي تتطلب حجزًا مسبقًا قبل شهر وأكثر. تطبع كل هذه الحجوزات على الورق، كما تحفظ المراسلات الخاصة بها في ملف واحد على بريدها الإلكتروني. حتى بعد أن تزوجت عزة من زميلٍ لها في وزارة الخارجية، وبدأت إقاماتها تتنقل بين الدول، استمرت رحلات الأسرة، سواء تمكن زوج عزة أو لم يتمكن من الالتحاق بهم.

بعد انصراف الصديقات كان الخدر قد تمكن منها، صعدت إلى غرفتها، وغفت نحو نصف ساعة. عندما أفاقت عاودتها أفكار السفر التي ملأتها بموجات من الطاقة طردت النعاس من عينيها. هبّت واقفة، وفي لحظة صار قميص نومها تحت قدميها، وخطت إلى الحمام. ألقت إلى البانيو بحفنة من زهور البابونج وفوقها زخات من زيت اللوز، أحكمت السدادة وضبطت درجة حرارة الصنبور وتركت الماء ينساب. وقفت تغسل أسنانها، ثم انزلقت إلى الماء. مغمضة العينين شرعت تستعرض الأماكن. «أمستردام»! أضاء اسم المدينة في رأسها كومضة، سرعان ما تفرعت عنها أفكار بالمدن التي يمكن أن تضيفها.

ولم يعد أمامها إلا أن تنهي حمامها، لتخبر أمها بمقترحها:

ـ مشيرة هانم، ما رأيك في هولندا؟

fb/mashro3pdf

قبل أن ترد الأم بالرفض، عاجلتها:

ـ ومعها بلجيكا!

تعرف السيدة أن رفضها لن يجدي، فأومأت موافقة. قبّلتها خديجة، وهاتفت عزة في كازاخستان، لتسألها عن الوقت الذي يناسبها.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

4

في الشرفة الصغيرة المزينة بأُصُص الورد، جلس جمال يشرب قهوته، ساهيًا عن ضوضاء الشارع في هذا الصباح الحار بما لا يتلاءم مع منتصف مايو. أخذ يمتص ببطء سيجارته، التي لا يدخن غيرها خلال اليوم، بينما يتأمل البتونيا المتداعية، مديده ينزع الأوراق الجافة، يداعب القليل الباقي من زهور ذابلة متهدلة خارج الأحواض الصغيرة المعلقة على الإفريز الحديدي للشرفة، انتبه إلى تأخره عن استبدالها بزهور صيفية. بقدر ما يحب هياج البتونيا المتباهي، يكره رؤية موتها. في كل عام يستقبل الشتاء بتشكيلة من مختلف الألوان، ينسقها على ذوقه، لكنه يتخلص منها قبل أن تتداعى تحت ضربات الحر.

طار دوري ناحل من فوق إفريز الشرفة المقابلة، دوّم للحظات، ثم حطَّ لاهثًا على إفريز شرفته «هل يحس العصفور بمرور الزمن؟» أخذ يتطلع إلى الطائر الهزيل وتتابعت في رأسه مشاهد حياته؛ فصاده الأسى. «لا بد أن البشر كانوا سعداء كالبهائم، قبل أن يخترعوا التقويم».

لم يشغل نفسه من قبل بمحاولة تصور شكل أيامه القادمة، التي يسميها الناس «المستقبل»، يعيش يومه فحسب، وإذا وجد فرصة

fb/mashro3pdf

ليتطلع إلى شيء خارج التزاماته، فعادة ما يرسل ببصره إلى لحظة ثابتة في الماضي. اللحظة التي تمدد فيها على سريره فاردًا ذراعيه لإخوته الثلاثة. كانت أول ليلة يبيت فيها أبًا وأمًا، بعد أن فرغت شقتهم من المعزين، وغادرت عمتاه اللتان تشاجرتا مرتين في أيام العزاء.

يستعيد تلك اللحظة، ليدرك حجم التقدم الذي أنجزه، سعيدًا بتوفير مستوى لائق من العيش لأسرته. وقد أوشك على الانتهاء من إعداد بيت زينب، فماذا بعد زفافها القريب؟

لم يعد يراها إلا نادرًا، تخرج مع خطيبها لشراء أثاث بيتهما، والبحث عن فستان الزفاف، وحجز قاعة الحفل، وغير ذلك من التفاصيل الصغيرة، التي عرفها مرتين من قبل. يبدأ الغياب متقطعًا أثناء الاستعداد للزفاف، قبل أن ينتقل الواحد منهم إلى حياته الجديدة؛ فيفرغ سرير، وينقص طبق على المائدة.

حسام، الذي يصغره بسبع عشرة سنة، تخرج في الكلية الحربية، وكان أول المغادرين. واظب على زيارتهم مع عروسه لنحو عام. في البداية كان يأتي أكثر من مرة في الأسبوع، ثم مرة واحدة، وبعد أن حملت زوجته صار يأتي منفردًا مرة في الشهر، ثم أخذته حياته شيئًا فشيئًا، وتباعدت زياراته، وبدأ يتصرف كضيف عندما يأتي، حتى انقطعت الزيارات، واقتصر التواصل على مكالمة هاتفية بين وقتٍ وآخر، لا يكف خلالها عن الشكوى من هموم الأولاد التي تكبر معهم.

fb/mashro3pdf

الفراغ الذي تركه حسام في البيت كان بالنسبة لجمال مثل الفراغ الذي تتركه ذراع مبتورة، لكنه تفهَّم ذلك، وكان عليه أن يواسي عاصم، الشاب الحسَّاس الذي ازداد شجنًا على شجنه الخاص، ووجَّه الكثير من اللوم لحسام، بينما لم تتأثر زينب المراهقة الحيوية في ذلك الوقت.

تزوج عاصم، وخرج من حياة جمال بأسرع مما فعل حسام. وبقيت زينب التي ظلت مضربة عن الزواج، تنفق نهارها واقفة في الصيدلية التي ساعدها جمال على تأسيسها فور تخرجها، وتعود في المساء تنتظره، وكثيرًا ما يأخذها النوم؛ فلا تشعر بعودته. لسنوات طويلة، أحسَّ بتلازم مصيرهما، لكنه شعر بالرضا لأنها أدركت قطار الزواج، ولو متأخرًا. سيصبح وحيدًا، دون أن يلوم أحدًا منهم؛ فهكذا هي الحياة، لم تزودنا بيدٍ قادرةٍ على احتواء بطيختين.

أحسَّ ببلل العرق تحت إبطيه، رغم أن الشمس لم تتصدر منصة السماء بعد، وبدأت ضجة الباعة الجائلين وجامعي الروبابيكيا في الشارع. تطلع إلى ساعته، وانسحب إلى الداخل حاملًا الفنجان ومنفضة سجائره.

لم يفلح الحمَّام الدافئ في جلب النشاط إلى بدنه، لكنه توقف أمام خزانة ملابسه يتخير ما يرتديه، بينما يفكر في شكل حياته عندما يصبح وحيدًا مسنًّا.

fb/mashro3pdf

أخذ الهاجس يكبر، ويُلح في الطريق إلى المحكمة، ولم يفارقه حتى أثناء المرافعة، فبدا مرتبكًا في أدائه. كان يتحرك رائحًا غاديًا في المساحة التي تخصه أمام المنصة، يعرض الوقائع الحزينة لحياة موكلته مع زوجها، وفجأة نسي القاضي والجمهور، وقال محدثًا نفسه: «من غير المعقول أن يحمل المرء ثلاث بطيخات، وفجأة يجد يديه خاليتين تمامًا». انخفاض صوته حمل القاعة على الصمت، فبدت عبارته مسموعة للجميع. لم تكن المرافعة تحتمل هذا؛ لأن الموكلة بلا أطفال، وكان لديها طلب وحيد هو الانفصال عن رجل بخيل؛ فبدت عبارةُ البطيخ في غير محلها.

في طريق عودته من المحكمة تصاعدت هواجسه حتى صارت رعبًا من الشيخوخة. أخذ يتذكر أصعب قضايا الطلاق التي ترافع فيها، واعتبر أنه أتعس من صاحباتها وأصحابها «على الأقل هم دخلوا تجربة».

في صباه لم يستهوِ أيًا من بنات الجيران، وفي الجامعة لم تلتفت فتاة إلى شاب أبعد ما يكون عن الجاذبية، يأتي وينصرف بانتظام مثل القطارات، وفي أوقات الفراغ بين محاضرة وأخرى يتسلل إلى المكتبة.

لقاءاته العابرة بموكلاته نصف المتزوجات نصف المُطلَقات قامت على قاعدة المصلحة. «نساء البرزخ» كما أسماهن، كُن يرين فيه القوة. قوة المحامي الذي انتصر لهن، أو قوة الرجل الذي تولى

fb/mashro3pdf

تصفية الحساب ورد صفعة الخيانة إلى الزوج الخائن، وعادة ما تغادر كل منهن تلك المرحلة، ولا تعود تتذكره، وإن تذكرته فبوصفه جزءًا من ذاكرة كآبتها.

امرأة واحدة يتذكرها بين الحين والحين؛ فيفعل أي شيء كي يطرد الذكرى. اسمها قمر. كانت تتمنى البقاء بجواره إلى الأبد. امرأة مستقلة، حنون كأم. جرَّبت حظها في الزواج مرة واحدة وكرست حياتها لطفليها، وكانت على استعداد أن يكون جمال ثالثهما. هي الوحيدة التي أكمل ليلة في حضنها، ونام يخرخر مغتبطًا كقط سعيد. في الصباح قدمت له القهوة في السرير، وتحممت معه، وعندما لفَّته بالمنشفة الكبيرة ووقفت في مواجهته تجففه، رأى الحب ينمو في عينيها؛ فهرب.

حملته ذكرى قمر إلى صورة خديجة، طالبة الدكتوراه. أخذت تُدَوِّم في خاطره كعصفور انطلق، وتبدد بعيدًا في السماء. يستعيد لقاءها، ابتسامة عينيها عندما يحدثها، ذبذبات الدفء في صوتها التي تشبه رفيف فراشة. شرع يُحصي اللحظات التي رآها فيها بعد ذلك اللقاء، قبل أن تختفي. يتذكر نظراتها المترعة بالكلام، وتجاهله لها «مرة أخرى أخفق في الانتباه إلى رسالة القدر».

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

5

رأته في حلم قليل التهذيب، جديد عليها تمامًا.

كانا عاريين في شارع صاخب، وكان يطوقها من الخلف محتويًا نهديها براحتيه ويداعب بلسانه شحمة أذنها، وكان المارة ينظرون إليهما ويمضون في دهشة ضاعفت متعتها.

استيقظت مشبعة ومندهشة من الحد الذي وصلت إليه خيالاتها. أغمضت عينيها متناومة، وشرعت تستعيد الحُلم؛ فانتشت مجددًا، مستشعرة دفء جسده، ورائحة التبغ في أنفاسه الحارة التي تلفح رقبتها.

نهضت، وخطت متمهلة نحو النافذة. أزاحت الستائر، ووقفت وراء الزجاج تتأمل حديقة الفيلا. استغرقت في مراقبة غَزَل زوج من الحمام على النجيلة الخضراء، كان الذكر فاردًا جناحية الأزرقين، يرقص حول أنثى بيضاء مُشربة بالرمادي تتمنع، يرفع رأسه بالهديل، بينما ينتفخ عنقه فينتفش ريشه النيلي بلمعة قرمزية، يدغدغ جسد الحمامة بمنقاره وهي تتقافز هربًا من حصاره. «الذكر أجمل منها وهي التي تتمنع!».

fb/mashro3pdf

عادت واستلقت على السرير تتأمل لوحتها العارية التي رسمها لها مُقبِّلُ الكعب مقلدًا لوحة تيشن «فينوس أوربينو» بالأحرى هي لوحة لجسدها بوجه فتاة أخرى، إذ عمد الفنان إلى تغيير ملامحها، وجعل بياض وجهها سُمرة خمرية. تجاهلت الوجه الذي لا يخصها، واستغرقت في تأمل نهديها الصبيانيين، وانسياب فخذيها النحيلين.

مدت يدها والتقطت التليفون من فوق الكومودينو «سأطلبه» عبرت الفكرة برأسها، ومثل مرات كثيرة سابقة تراجعت «لديه رقمك، لماذا لم يطلب هو؟». أعادت التليفون إلى مكانه، ونهضت مجددًا، دون رغبة في مغادرة غرفتها. خرجت إلى الممر، وعبر الدرابزين نادت على الخادمة بالطابق الأرضي، لكي تحمل إليها إفطارها، ثم عادت إلى الحمام، تمارس طقوسها الصباحية.

بعد الإفطار، حملت التليفون بتصميم هذه المرة، وهاتفته. لم تخطئ أذنها الدفء في اختلاج النغمات الهشة في صوته، تحت طبقة الكاونتر تينور التي واجهها بها. تلعثمت للحظات، ثم ألقت على مسامعه بما كانت قد أعدته في ذهنها:

ـ هل يمكن أن أزورك لاستيضاح بعض النقاط؟

لم يأتها سوى صمته؛ فأخذ قلبها ينتفض كعصفور في فخ. بعد لحظات أحستها دهرًا، انساب صوته مُرحبًا.

عندما دخلت عليه في المكتب، وقف يتأملها. دهمته هبّة العطر ذاتها، الأناقة الهادئة المنسجمة مع الصوت الرهيف الواثق، لكنها

fb/mashro3pdf

بدت في فستانها الأزرق السادل أطول وأكثر نضجًا مما بدت تحت البالطو. «نحيفة، لكنها ليست طفلة».

سألها إن كانت قد وصلت بسهولة، عن إحساسها بالبحر، الذي جاء أبكر وأعنف من المعتاد. قال مبتسمًا:

ـ لم يعد الربيع يأتينا إلا رمزًا!

بدا مستريحًا وراغبًا في الحديث. أخذها من القانون إلى الأدب، انتظرت لحظة صمت، وسألته:

ـ بأي قدر يعتمد نجاح المحامي على المعرفة بالقانون، وبأي قدر يعتمد على ملكاته الشخصية؟

صمت للحظات، وسألها معاتبًا:

ـ ما علاقة هذا بأطروحتك؟

أجابته:

ـ المعرفة لا تضر.

ـ معك حق!

ثم صمت دون أن يتخلى عن ابتسامته، فشرعت تعبر عن إعجابها بمرافعاته، وأخذ يستمع إلى حديثها عن نجاحه كأن ما تقوله تحصيل حاصل لا يستدعي الشكر. انتظر حتى انتهت من كلامها، وعقَّب بهدوء:

fb/mashro3pdf

ـ لأنني أحب عملي، ربما؟

لم يظفر سوى بصمتها، فعاد يوضح:

ـ شغف المرء بما يفعل يجعله يجيد عمله.

بعد لحظات صمت أخذ يُحدثها عن حبه للمحاماة، دون أن يُشعرها بأنه يرى مهنته مميزة على نحو خاص.

ـ لا توجد مهنة وضيعة وأخرى جليلة.

أخذت تستمع إلى استرساله. شعرت بعضلاتها ترتخي بانتشاء لم تحصل عليه تحت يدي أبرع المدلكين. نظر إلى الإعجاب في عينيها بحبور.

ـ الشغف هو الأصل، ومع الوقت تأتي الخبرة.

وتمدد الصمت بينهما، بينما أخذ يختلس النظرات إليها. أحست بالحرج، وسألته:

ـ تبدو شغوفًا بالأدب.

كأنها لمست جرحًا. أرجفته شكة ألم، وكاد يبوح لها بحلم الكتابة الذي تبدد في أروقة المحاكم. لا ينسى اللحظة التي صارح فيها نفسه بعجزه عن مواصلة ولعه السري. أخرج كتاباته التي يحتفظ بها على أوراق متعددة الأحجام والألوان، ورتبها، من الخربشات الأولى إلى كتابات المرحلة الأخيرة التي أسماها «مرحلة تبدد الروح» وحملها إلى ورشة تجليد.

fb/mashro3pdf

بعد أن عرض عليه الأُسطى العجوز رقاعًا من الجلود المختلفة والأقمشة والكرتون، اختار غلافًا من جلد الغزال. سأله الأُسطى عن العنوان، أجابه بتلقائية «مومياء الحلم». دس المجلد في المكتبة الصغيرة بغرفة مكتبه، التي يحتفظ فيها بأهم مراجع القانون.

اختلس نظرة إلى المكتبة، ثم نظر في عينيها، وأجابها:

ـ بالأدباء الكلاسيكيين على نحو خاص.

ـ لماذا؟

ـ لكي أحكي مثلهم، وأتجنب طريقتهم في المرافعة.

تطلعت إليه بحيرة؛ فاسترسل:

ـ من دوستويفسكي إلى فلوبير ونجيب محفوظ. كلهم يروون حكايات أبطالهم بشكل رائع، لكنهم يترافعون عنهم بشكل سيئ، لا يطلبون لهم البراءة بل يلتمسون العطف. في أعماقهم يدينونهم، وأسوأ محام هو من يبدو غير مؤمن ببراءة موكله.

سألته:

ـ ونابوكوف؟

فاجأه سؤالها، فاندفع يسألها:

ـ تعرفينه؟!

fb/mashro3pdf

رمقته باعتداد، وكأنها تقول له «من تظنني؟» فاستأنف، كالمعتذر:

ـ في «لوليتا»؟ هو الأسوأ، جعل همبرت همبرت يترافع عن نفسه بقصد أن يخسر. لم يكن نابوكوف مؤمنًا بسلامة الموقف الأخلاقي لبطله.

أحس، بأنه تجاوز حدود الثقة بالنفس إلى الغرور، فبدت عليه علامات الحرج، واختتم بصوت هادئ:

ـ على المحامي أن يؤمن بما يقول، وأن يكون قادرًا على نقل حماسته إلى المنصة، ولا أدعي بأنني أنجح دائمًا.

تيقنت من مرافعته التي خصّصها لها وحدها أنها وجدت المفتاح، وعندما خرج معها، وصافحها أمام باب المكتب مستبقيًا يدها في يده، أدركت أنها تمكنت أخيرًا من هز البطيخة التي يتشبث بها.

fb/mashro3pdf

6

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة عندما أيقظته شدة الحرارة. تذكر أن موعده كان في العاشرة مع عبلة، الموكلة التي عادت إليه لرفع دعوى خُلع على زوجها الثاني بعد خمس سنوات من طلاقها الأول. عرفها على الفور، رغم الطرحة السوداء والعباءة الخليجية ذات الحواشي المذهبة، ورغم أنها صارت أكثر امتلاء. أطلعته بسرعة على القصة، دون تأثر كبير، كأنها مكلفة بعرض قضية امرأة أخرى، ثم صمتت. ووجد نفسه في مواجهة العينين الضيقتين المثيرتين. حدّقت فيه بنظرة الاعتداد بالنفس ذاتها، التي طالعته بها عندما هبطا من القمة ذات صباح، وتذكّر همسها له «على فكرة، أنت تستحقني» وخلال ثلاث لقاءات محمومة تالية، أمعنت في التعبير عن شكرها، ثم اختفت، لتعود أمس الأول أكثر امتلاءً، وأكثر جسارة.

زفرت، ومسحت عرقها، وأزاحت طرف الطرحة، ثم تطلعت في عينيّ جمال مجددًا، وسحبت نظرته إلى أصل ثدييها البضين، ثم سارعت بإغلاق زر العباءة مبتسمة. لم يشعر بالإثارة كما في السابق، ومع ذلك واعدها. يذكر أنها ممن يُفضلن لقاءات الصباح التي يسميها «إفطار عمل». سألها مباشرة: «ما رأيك بالعاشرة، صباح السبت؟».

fb/mashro3pdf

فور مغادرتها أحس بأنه ورط نفسه في موعد، لا يريده حقيقة «لكنك رجل ككل الرجال»، قال موبخًا نفسه. يعتبر الرجل رفضه لدعوة المرأة إساءة إلى ذكورته، وخلال ربع قرن أمام المحاكم، تأكد جمال أن الضعف في الفراش، هو التهمة التي تجعل أي رجل يرفع راية الاستسلام موافقًا على كل شروط المرأة، ولذلك يسميها «السلاح المُحرَّم دوليًا» ويشهرها فقط في وجه زوج لا يعرف شرف الخصومة.

على الرغم من إحساسه بالعرق الدبق الذي لا يحتمله، لم يجد في نفسه الرغبة لمغادرة الفراش. تناول ريموت التكييف، وصوّبه نحو الجهاز. أغمض عينيه مستلذًّا تيار الهواء البارد. أخذ يستعيد لقاءه بخديجة، ويُعد الأيام التي مضت على اللقاء «معقول، خمسة فقط؟».

حدَّق في سقف الغرفة، مستدعيًا التفاصيل؛ رفيف رموشها الطويلة عندما استقرت عيناه في المساحة المكشوفة من صدرها، خوفه من الصمت، واجتهاده في ملء الوقت بكلام كثير، مبالغته في رفع صوته، لكي يُسمع السكرتير العجوز، الذي دخل عليهما من أجل استفسار غير ضروري، ثم عاد إلى مكانه في الاستقبال، بعد أن ترك أذنه بينهما.

كل لحظة، مطبوعة في ذاكرته، منذ دخولها المبهج إلى مصافحة الوداع، عندما توهج وجهها وتحولت من طيف أثيري تنقصه فتنة

fb/mashro3pdf

الشحوم إلى جسد مطبوع بأنوثة رهيفة، كأجساد فتيات لوحة العازفات الفرعونية.

رأى مجددًا انتصاب قامتها، وهمس لنفسه: «ميريت آمون!» أحس بالارتياح لأنه وجد الشبه الصحيح، ولم يلبث ارتياحه أن تحول إلى غبطة لهذه المقارنة بين خديجة والشابة الأكثر جمالًا التي صارت زوجة لأبيها. اعتصر ذهنه بحثًا عن شواهد أخرى من التاريخ لعلاقات بين كهول وشابات «فرق السن بيننا ليس مأساويًا إلى الحد الذي أظنه» قال، ولم يسترح إلى هذه القناعة حتى عاد إلى إحباطه، إذ لاحظ أن الشيوخ الذين ارتبطوا بطفلات ومراهقات، كانت لديهم إما هالة قداسة أو قبضة سلطان. «لست كأحد منهم» فكّر محبطًا، وهتف لنفسه بصوت مسموع: «مستحيل». لكن قارئ الروايات المحترف، يعرف أن ألق الحب لا ينبع إلا من استحالته، وأن كل القصص التي قاومت النسيان كانت عن الحب غير المتحقق.

تصاعد إحساسه بمرارة ريق النوم، بينما بددت برودة الغرفة كسله؛ فنهض إلى الحمام. دفع بفرشاة الأسنان في فمه ونسيها هناك، محلقًا في المرآة «هل هو الحب حقًا؟» أخذ دور الادعاء ضد نفسه «شغفك الذي يتزايد يومًا بعد يوم ليس سوى التعبير المراوغ عن الجشع؛ جشع امتلاك شبابها بعد أن بددت شبابك فيما تدعوه الواجب؟» حدّق في الوجه الشاخص بالمرآة مثقلًا بالخزي من وطأة الاتهام، فخفف من نبرة هجومه «لعل إحساسك بجرح الكرامة جرّاء انسحابها هو سر هذا الولع».

fb/mashro3pdf

إن كان لـه أن يكره كلمة فهـي «الكرامة» يا لها من عذاب! البطيخة الثقيلة التي ملأت كفه وتشبثت بها أصابعه طوال عمره مخافة سقوطها من يده. واجه كل صعوبات الحياة بصلابة، لكن جوهر كفاحه اليومي الشـرس كان الحفاظ على الكرامة. لم يكن يهمه ما سيعود به لإخوته الصغار في آخر النهار، بل أن يكون قادرًا على النظر في عيونهم.

يؤمن بأن ثلاثة أرباع كرامة الإنسان يكمن في الحرية؛ فهي وحدها التي تضمن احترامه لمجرد أنه إنسان، وليس لسلطته أو اسم عائلته أو أي شـيء آخر. ولأنه لم يتنفس هواء الحرية منذ فتح عينيه على الدنيا؛ فهـو يدرك تمامًا أنه يسـتيقظ من نومه فاقدًا ثلاثـة أرباع كرامته، هكذا قبـل أن يغـادر عتبة بيته ويبـدأ حربه اليومية الشرسـة دفاعًـا عن الربع الذي يملكه. يجتهد ليحقق مكانة مهنية مرموقة. يتصرف بما لا يعيبه. لا يسـكت عن إهانة طفيفة يوجهها إليه أحدهم، ويرد بشكل مبالغ فيه على أية بادرة اعتداء.

تابع طقوسـه سـاهمًا، وقد تحول غيابها إلى هاجس يتصاعد «هل تجاهلتهـا فـي البداية خوفًـا على كرامتـك أم أنها بالفعل لم تسـتلفت انتباهك؟» تحير المحامي الكفـء، ممثل الادعاء الصلب في الجواب، وتذكَّـر أن لقـاءه بخديجة في المرتيـن كان في المكتب «هل ستقوى على الظهور معها في أي مكان آخر؟ وكيف سينظر إليكما الآخرون؟» لم يجد جوابًا، وأحس بأطرافه باردة. أخذ يستجوب نفسه عن حقيقة ما يحسـه تجاهها؛ هل هو الحب، أم الإثـارة التي يندفع إليها المقامر،

fb/mashro3pdf

وقاضم الفلفل الحار؟

«يستطيع الإنسان أن يفهم الكثير من الأشياء؛ إلا ذاته». همس لنفسه بينما يجفف جسده بالمنشفة السخية. ارتدى ملابسه، واتجه إلى الصالة. فتح باب الشرفة على مصراعيه، ليبدد سحابات الأسئلة اليائسة.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

7

رصّت أدوات زينتها على طاولة المرآة، ورتبت ملابسها في خزانة غرفتها بالفندق الذي اختارته في قلب بروكسل. لم تزل لديها ساعة، قبل أن تسمع النقرات الثلاث لأمها على الباب، كي تخرجا لتناول العشاء.

باغتت ذاكرتها موجة حارة من القاهرة مثقلة برائحة جمال التي تسللت إلى أنفها كثغرة وسط سياج عطرها، وأخذت رائحته توسع لنفسها حتى سيطرت على هواء الغرفة. أحست أنها صارت في مكتبه، تستنشق رائحة اختلاط تخمر فمه برائحة العرق بعطر البنفسج. الرائحة القوية التي استسلمت لخدرها ولم تستبشعها، بل على العكس، أخذت تستنشق هواء الذكرى بعمق، وتحبسه في رئتيها؛ فيتزايد إلحاحه على مشاعرها. التقطت تليفونها، فتحت الواتس آب وكتبت «مساء الخير، أنا خديجة البابي».

تأملت الرسالة في الشاشة، وضغطت «إرسال» أخذت تراقب ومضات التحميل، كأنها موجات من الريح تراها تمضي نحوه حاملة تحيتها فوق الجبال والأنهار والبحار.

fb/mashro3pdf

عاد سطح الشاشة إلى الإعتام فأحست بالاضطراب. «لن يرد. لماذا أنا طائشة إلى هذا الحد؟!». أخذت تراقب الواتس آب تنتظر علامة قراءته لرسالتها، مرت دقائق ثقيلة، إلى أن ظهرت علامة «يكتب»، ثم وصلها الرد «الحمامة؟». ابتسمت وتحركت أصابعها تكتب «أحييك من بروكسل». جاءها الرد «يا بخت بروكسل».

ازدادت ضربات قلبها، ووجدت نفسها عاجزة عن التمادي. استلقت وأغمضت عينيها، لكنها لم تكف عن إرهاف سمعها للتليفون الملقى على السرير.

في المطعم، جلست في مواجهة أمها شاردة، كأنها أضاعت شيئًا، تتطلع بين لحظة وأخرى إلى تليفونها الصامت. لم تدقق في قائمة الطعام، ولم تناقش أمها حول ما تأكل كل منهما، كما اعتادت. سألتها أمها:

ـ متى ستصل عزة؟

ـ الواحدة ظهرًا يا مامي.

ـ وحدها؟

ـ لا بد أن عادل مشغول، وهما أدرى بظروفهما.

ردودها المقتضبة حملت أمها على الصمت، وأحست خديجة بتأثرها فأمسكت بيدها.

fb/mashro3pdf

«لن أبادر بالكتابة إليه» استراحت لقرارها، وأخذت تحرك ملعقتها في الحساء. وفجأة تورد وجهها بومضة الموبايل. التقطته وفتحت الرسالة «أين القمر الآن؟» تأملتها برضا. أخذت نفسًا عميقًا، وأعادت الموبايل إلى مكانه بطرف الطاولة، وبدأت تتذوق الحساء بغبطة النصر.

قاومت رغبتها في الرد حتى أنهت حساءها، ومثل مُربٍّ حكيم لم تشأ أن تزيد الضغط إلى الحد الذي يدفع الطفل إلى التمرد، كتبت إليه «مع أمي نتعشى في مطعم رائع». وأخذت تختلس النظرات إلى وجه والدتها التي انشغلت بتوجيه نادلة وقفت أمامهما بأطباق المقبلات.

فتحت كاميرا التليفون على الفيديو، أدارته تستعرض المطعم، وأرسلت إليه مقطع الفيديو. جاءها الرد. «تعشيت وحيدًا في البيت» وأتبعه بأيقونة الوجه الحزين.

في اليومين التاليين تسارعت وتيرة التراسل بينهما، وأخذت تشرح له ما تراه في رسالة بعد أخرى، وكأنها بصحبة أعمى قررت أن تكون عينيه. «صباح الخير، نحن في ساحة وسط المدينة بين المتاحف لا نعرف بِمَ نبدأ. هل تتخيل؟ نحو عشرة متاحف متجاورة ومتقابلة في ميدان صغير وعدد من الحارات المتفرعة عنه، متحف وطني، متاحف لشخصيات تاريخية، متحف لماجريت وحده، متحف طبيعي، شيء مبهر». رد «الله! أحب ماجريت». أرسلت له صورة سيلفي لها في طابور الدخول. وكتبت «بدأنا بماجريت من أجلك». لم يرد على

fb/mashro3pdf

مجاملتها، صمتت هي الأخرى، وبعد ساعة كتبت «مبهر، وقدماي تؤلمانني، أتابع رحلة مدرسية وأكاد أبكي» وبدأت ترسل له الصور التي التقطتها خلسة للرحلة المدرسية. «ثلاث مشرفات مع اثني عشر طفلًا، يسألن الأطفال عن تصوراتهم عن اللوحات، إحداهن تُمثل لهم صامتةً طهي حساء من سمكة اللوحة، وعندما انتهت اصطف الأطفال أمامها، يرفعون قبضاتهم كأنها تحمل أطباقًا يحاذرون ألا تسقط، والمشرفة تسكب لكل منهم الشوربة الخيالية في الأطباق الافتراضية «هل فهمت ما يجري في هذه الصور؟ هل يمكن أن يظهر متطرف بين هؤلاء الأطفال؟» أمطرته بسيل إضافي من الصور، ثم كتبت «أمي تناديني، سأكتب لك لاحقًا».

بعد قيلولة قصيرة راجعت تليفونها فوجدت رسالة تنتظرها «في هذا البحر أفتقد هديل الحمامة» ابتسمت وقاومت رغبتها في الرد. سيرى رسالته مقروءة، وينتظر. فكرت بمرح شرير وقامت تستعد للخروج المسائي. سمعت صوت وصول رسالة جديدة منه «هل أنت بخير؟» عادت إلى التليفون الملقى على السرير، قرأتها وتنفست بعمق، بينما تتقافز روحها على افتتاحية موسيقى فيفالدي «الفصول الأربعة». بعد أن انتهت جلست تستعرض الرسائل، تعد رسائلها في مقابل رسائله، تحسب توازن الدفء بينهما. ولم تشعر بالرضا فواصلت صمتها، حتى وصلتها رسالة جديدة «أعتذر إن كنت أزعجتك» بادرت بالرد «إطلاقًا، كنت مُتعبة، نمت وقمت متأخرة». كتب «لا تصمتي

fb/mashro3pdf

هكذا.. رجاء» نظرت إلى الشاشة راضية وكتبت «لماذا؟» واختارت أيقونة وجه باسم. أرسل وجهًا بعينين على شكل قلبين وكتب «لأنني أفتقدك».

مثل مقامر حذر، أخذ يرفع دفء رسائله مرة بعد مرة، يدفعه كل إخفاق إلى التورط أكثر. وبعد صمت طال أرسلت: «سأكتب إليك بعد ساعتين، أستعد الآن للخروج، سنذهب إلى كونسير، وسأرسل لك الصور».

ولم تصله الصور، وإنما اعتذار متأخر في قلب الليل. «آسفة، نفد شحن التليفون، بينما كنا في الخارج، كانت أمسية رائعة». ابتسمت ارتياحًا عندما رأته على الخط في الواتس آب، وظهرت إفادة (يكتب) ثم جاءتها كلمة واحدة «ما زلت في المكتب، كنت أنتظرك». أحست باضطراب لذيذ، وكتبت «سأرسل إليك بطاقة بريدية من هنا» أجابها «احمليها معك أسرع» وأرسل وجهًا باسمًا. أرسلت إليه صورة رواية ميلان كونديرا «المزحة». رد على الرسالة: «لا أحب هذا الروائي، لكنني أحببت الجمال النائم فوق الكتاب».

تحيرت في فهم الرد، عادت تتفحص الصورة فعرفت أنه يقصد أصابعها التي ثبتت بها غلاف الرواية لتصويره. أسعدتها هذه المباغتة، وأحست بعبارته الخجولة كأنها لمسات تدغدغ جسمها. رسمت وجهًا مبتسمًا، وكتبت له «تصبح على خير، سأنام الآن لأننا سنغادر صباحًا إلى أمستردام». وضعت تليفونها على الكوميدينو بجوارها، وأغمضت عينيها مبتهجة.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

8

عاوده حلم الطيران الذي نسيه منذ سنوات طويلة.

رأى نفسه يُقلع من نافذته في الطابق الخامس، ثم أخذ يهوي مسرعًا نحو الأرض، أحس بهلع، وجرب الرفرفة بذراعيه وساقيه؛ فرأى نفسه يرتفع متجاوزًا الطابق السابع. غمره الاطمئنان، وأخذ يُموِّج في أقواس هابطة صاعدة مثل عصفور يستعرض مهاراته، إلى أن حط في سلام.

هرب من تأملاته باستعادة حلمه متلذذًا بلحظات التحليق في الحلم الذي لازمه كل سنوات شبابه. فتح عينيه، وأخذ باستعادة وقائع المنام لحظة بلحظة، يقارن بين شكل العمارات في الحلم وحقيقتها في الواقع، يُحدد الزوايا من الفراغ التي كان يستدير عندها، يتذكر الشرفات التي لامسها بأطراف أصابعه، عندما رفرف مرتفعًا.

أحس ببرعم الأمل ينبش تحت ضلوعه. مد يده إلى التليفون، بحثًا عن رسالة منها. عاين الساعة «لا بد أنها لم تستيقظ بعد». نهض «سأدلل نفسي بإفطار مميز». وفكر في لفافة أومليت بالرمان والجبن.

fb/mashro3pdf

كانت أطباق العشاء في حوض المطبخ كما هي، شرع في غسلها مدندنًا بأغنية، ثم وجد نفسه يهتف بطبقة التينور الدرامي التي اعتاد أن يختم بها مرافعاته: «أنا مُغرم».

رددت الجدران صدى صيحته، ثم أخذ يدير الكلمة في رأسه بدهشة طفل يكتشف لغز لعبة جديدة. «مغرررم؟!». انتبه إلى أنه لم يستخدم هذه الكلمة في مرافعاته مطلقًا. لم تعرف لغته سوى الغريم والغارمة، أما الغرام فلم يقربه. «هل كنت أضلل العدالة طوال هذه السنوات؟!». للمرة الأولى وجد أمثولته في موضع المساءلة، تلك العبارة الملغومة تشاغل العدالة، فتحملها على فتح عينيها والنظر إلى حيث يريد، وعادة إلى الظلم الواقع على موكلته بسبب خيانة زوجها أو بسبب زواجه من أخرى، وكأن البشر بطيخٌ، لا يعرف مشاعر حب أو كراهية أو إحساس بالإهانة.

بعد أن استراح إلى نظافة المطبخ، شرع في إعداد لفافته. أخذ يتحرك بخفة بين الثلاجة والموقد. عندما صارت اللفافة جاهزة نقلها من المقلاة إلى الطبق، زينها بأوراق البقدونس، وألقى فوقها بشمرتي عين الجمل، الذي يحرص على تناوله كل صباح، حماية لذاكرته من الشيخوخة. سكب في طبق آخر القليل من العسل، أدفأ نصف رغيف، وحمل إفطاره إلى طاولة الطعام.

أخذ يأكل بسعادة لم تخل من الشجن، تحت تأثير إحساسه بوجود الكثير من الأشياء الجميلة التي أهملها، والكثير من لحظات السعادة

fb/mashro3pdf

التي لم يعشها. استعرض سنوات عمره التي قضاها راكضًا، فكّر «تقدُّم الصفوف لا يعني دائمًا النصر، كنت أركض هربًا». مكّنه الركض في الجامعة من التخرج بتفوق يؤهله للعمل في النيابة، وعندما رُفض طلبه تلقى النتيجة بصلابة مصممًا على التفوق في المحاماة، تخلى عن رغبته في الكتابة، وركّز كل انتباهه لمهنته، يواظب على حضور مرافعات المحامين الآخرين، يرصد ردود فعل القضاة على هذه المرافعة أو تلك. بالركض بين البيت والمحكمة تمكن من توفير ما يحتاجه إخوته لإكمال تعليمهم، واستطاع مساعدتهم، واحدًا بعد الآخر في تكاليف الزواج، كما تمكن من تملك مكتب في الدقي بالقرب من البيت.

رسائل خديجة جعلته يكتشف أن الحياة يمكن أن تكون كالأحلام؛ خفيفة ومبهجة. نسي فوضى المرور، ولم يعد أنفه يتأذى من سحابات السخام التي تنفثها المركبات الهرمة، ولم يعد يرى حفر الرصيف وأكوام القمامة التي تغذي غضبه. هذه الأشياء التي لم يكف يومًا عن التفكير بها، لا بوصفها وليدة فشل عادي من ذلك الذي تصنعه قلة الكفاءة؛ بل باعتبارها تدبيرًا محكمًا للنيل من كرامة سكان القاهرة. حتى الباعة الجائلون وجامعو الزوبابيكيا، نصف الباعة نصف المخبرين الذين يزعجون صباحاته، أصبحت نداءاتهم تغريد كروان في أذنه. تمرد على المسار الذي اعتاده منذ سنوات طويلة بين البيت والمحكمة فالبيت ثم المكتب. رحل بوجدانه وراء خديجة، وترك لرسائلها أن تقوده، عاش تفاصيل أيامها، تابع حركتها من تاكسي إلى

fb/mashro3pdf

قطار ومن متحف إلى قلعة أو كنيسة أو حفل موسيقي. لا تذكر له مكانًا إلا ويبحث عنه على الخريطة، لا تذكر رسامًا أو موسيقيًا إلا ويبحث عن تاريخه وأسلوبه.

غادر البيت مبتهجًا، لا يكف عن معاينة تليفونه، لكنه لم يتلق منها رسائل طوال النهار. وبعد أن انتهى من كل المطلوب منه في المكتب مساءً، أحس بالرغبة في البقاء، ترك مقعده وراء المكتب إلى جلسة مستريحة على الكنبة الجلدية بغرفته، مرهفًا سمعه كأنه ينتظر ضغطتها على جرس الباب. لم ينبهه إلى تأخر الوقت إلا انقطاع التيار الكهربائي. اعتمد على ضوء التليفون وغادر إلى البيت الذي كان مجللًا بالظلام هو الآخر. تسحب إلى غرفته، واستلقى على السرير غارقًا في عرقه، يحاول استحضارها. لا بد أنها نائمة الآن، أخذ يتصور طريقة استلقائها، ما ترتدي، شكل سريرها وأثاث الغرفة. كتب إليها: «ساهر أحرس نومك؛ لأهش الأحلام السيئة فلا تقترب منك». وأخذ يرهف السمع لصوت تليفونه في الظلام، بينما يمر الوقت بطيئًا. بدأت مكبرات صوت المساجد تجأر بالتواشيح قبل رفع أذان الفجر، ومن بين هذه الضجة تبين تكة وصول رسالة على «الواتس آب».

«نمت مبكرًا وتنبهت الآن، لم نزل في منتصف الليل». أجابها «نوم العافية، هل أزعجتك؟» أجابت «مطلقًا» وتلاحقت رسائلها تحكي له عن تفاصيل يومها. أخذ يقرأ في الظلام. وبقلب خافق، كتب «ليتني كنت معك» أرسل وتزايدت سرعة نبضه انتظارًا لرد لم يتأخر. «الرحلة

fb/mashro3pdf

القادمة» قرأ ردها فشعر بنفسه محلقًا، وهبت نسمة هواء نادرة، أحس برودتها في عرقه.

ضجيج الأذان غطى على صوت وصول رسالتها التالية «الدعوة للرحلة القادمة جادة جدًا» استعرض رسوم الواتس آب وأرسل لها أيقونة قُبلة. كتبت له «حلمت بك!». سرت قشعريرة ببدنه كمن يطأ أرضًا مقدسة، كتب «كنت مطيعًا؟» ردت «لم تكن موجودًا في الحلم شخصيا، لكن اسمك كان موجودا. لا أذكر الحلم جيدًا». أجابها «أما أنا فأحلم بك وأنا صاح». أرسلت له قلبًا مربوطًا بشريط هدية.

أخذت الرسائل تتقافز بينهما، وأحس أنه يمارس للمرة الأولى لعبة «كرة الطاولة» عليه أن يسدد بسرعة، وأن ينتبه للهجوم الذي لا يعرف اتجاهه، شيء لم يعتده في مرافعاته التي يعدها مسبقًا، متوقعًا أنواع الأسئلة التي قد يوجهها القاضي أو محامي الخصم في القضية.

رسائلها جعلته يعيد تقييم ثقته في قدراته اللغوية، بتوريات بارعة تحمله إلى منطقة حميمية، وعندما يطمع ويهجم بكلمة مكشوفة تجبره على ارتداء أقنعة البلاغة، ثم يجد نفسه فجأة في ملعب الفن، ملعبها الذي لا يمكن أن يجاريها فيه. كتبت له انطباعاتها عن لوحات فان جوخ، عن الطريقة التي ابتكرها في التلوين، وعن أجهزة العرض المتحفية التي تحلل الألوان وتعيد خلطها من خلال حركة المناشير الزجاجية.

fb/mashro3pdf

هجم ضوء الصباح عليه من خلف ستائر الغرفة، دون أن يشعر بالملل أو النعاس. طلب منها أن ترسل صورتها على هيئتها في هذه اللحظة. كتبت إليه «انتظر، سأشعل الضوء» وأرسلت له صورة للغرفة كاملة، ثم صورة نصفية لها مستندة إلى رأس السرير، تتنطط السعادة في عينيها، بينما يبدو صدرها بين ضفتي روب ناصع البياض بحاشية من الدانتيل. كتب «يا خالق الجمال!» أحست بشهقته في الحروف المضيئة، فأجابته:

- Lol.. let's skype!

fb/mashro3pdf

9

أفزعها رنين تليفون الغرفة، كأنه زلزال. كانت عزة، توقظها. ردت خديجة بعد أن استجمعت وعيها:

ـ حبيبتي، نمت منذ قليل، اخرجا أنتما.

تركت سماعة التليفون، وعادت إلى النوم. عندما استيقظت كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد الظهر، أدارت رقمي غرفتي أمها وأختها، فتأكدت أنهما لم تعودا من الجولة الصباحية بعد. تساءلت «كيف تدبرت عزة الأمور مع ماما بمفردها؟!». وأحست بالإشفاق تجاه أختها. لا تعاني مشيرة من مظاهر الشيخوخة فحسب في السنوات الأخيرة، بل من النزق وعدم الرضى عن أي شيء، ومنذ أن ارتدت الحجاب، أصبح البحث عن مطعم حلال هاجسها المسيطر منذ لحظة وصولهم إلى أية مدينة.

نهضت وخطت نحو المرآة، أخذت تتأمل وجهها، رأت علامات الإرهاق بادية في ملامحها. التقطت تليفونها من فوق طاولة الزينة، تفحصته. لا رسائل. أوصلت التليفون الموشك على الانطفاء بالشاحن، ومضت إلى الحمام. غسلت أسنانها، ثم جلست على

fb/mashro3pdf

التويلت، بينما لم يغادر تنميل النوم رأسها، أحبت حالة النعاس وقررت عدم تبديدها بالاستحمام، على أمل استئناف النوم.

عندما أغمضت عينيها، بدأ النوم يتبدد من رأسها، وأخذت تستعيد محادثة سكايب، غير متأكدة إن كانت جرت حقيقة أم في الحلم، مندهشة من المسافة بين صورة المحامي المهيب جمال منصور، عندما رأته في المرة الأولى، وبين ذلك المتهتك الذي حملها إلى مناطق خطرة من الحوار «ينطوي البشر على إمكانات لا نهائية» قالت، وفكرت أن كل الناس يبدون لغيرهم مثل صناديق مقفلة، أو قماقم مختومة بالرصاص، حتى يقترب أحدهم من الآخر، ويفض الختم. وقد فضّت ختم جمال، وخرج الشاب الأرعن، بلسانه الذي لا يستقر داخل فمه، وشفتيه اللتين لم يكف عن مصمصتهما، ولم تقو على إيقافه، بل مضت وراء محاكاته حتى عانقت الجمر. عاودتها الرعشة، وسرعان ما جرفها الخجل «كيف ينظر إليّ الآن؟». ثم تمدد السؤال «وماذا لو اطلع آخرون على هذه المحادثة؟» أحست بالهلع، إذ تذكرت التسريبات لمحادثات صوتية وفيديوهات التنصت، التي يقوم بها أفراد ومؤسسات، يستخدمون هذه الأسلحة القذرة في الحرب السياسية الدائرة بالبلاد.

تصاعد ضيقها؛ فقررت مغادرة الغرفة، لتناول الشاي مع شيء خفيف في بهو الفندق.

جلست تتأمل الداخلين والخارجين، تستمع إلى الحوارات والتحايا التي تصلها مختلطة، لتخمن الجنسيات، واستغرقتها اللعبة.

fb/mashro3pdf

عبرت الباب امرأتان متساندتان، دققت لتجري عليهما اختبارها، أخذتا في الاقتراب، دققت أكثر، وأحست بالألم، لا لأنها لم تميز أمها واختها، بل لأنها أحست أنها منفصلة تمامًا عنهما، إذ رأتهما بين الآخرين بلا خصوصية «كأي امرأتين». من تلك المسافة بدت عزة عجوزًا، وبينما تأخذ بيد أمها، ظهرت لديها حدبة خفيفة، لم تلاحظها خديجة من قبل، وبدا رأسها المنكس مثقلًا بالهم، الذي كان واضحًا في عينيها لحظة وصولها، واجتهدت لإخفائه بعد ذلك، دون نجاح؛ إذ بدت ضحكتها متكلفة مشروخة، تنتهي فجأة، ويحتل الأسى وجهها، كما بدت قليلة الفضول، ميالة للكسل مثل أمها، وعندما سألتها خديجة تهربت؛ فلم تصر عليها.

أخذتا بالاقتراب. قامت من مقعدها، وأسرعت نحوهما، واحتضنتهما معًا.

بعد ساعتين من الراحة، توجهن لتناول الغداء في أفضل مطعم ياباني بأمستردام «بيت النار» كما تسميه خديجة، يبدو التُّدُل مثل السحرة، يتراقصون أمام الطاولات في المطعم خافت الإضاءة، بكسرولات الصلصات تتصاعد منها ألسنة اللهب، قبل أن يسكبوها على أطباق الخضار المتنوعة، التي تُقدم كلوحة من الألوان المتناغمة. عندما دخلن، رحب بهن نادل من الباب، وظل هو نفسه ملازمًا لطاولتهن على استعداد لتلبية أية إشارة. أخذت خديجة تبدي إعجابها بمهاراته، وتُثني على الطعم، بينما كان عليها أن تهتم بامرأتين متداعيتين. أضاء

fb/mashro3pdf

تليفونها بإشعارات رسائل، متتابعة، بعضها من صديقاتها، وبعضها من جمال، فالتقطت تليفونها من فوق الطاولة، ودسته في حقيبتها.

كان وجه الأم متقلصًا من التعب، بينما تركت عزة نفسها على راحتها، متخففة من عبء الإنكار، بعد أن تأكدت من إدراك خديجة لحزنها. كان من المفترض أن يذهبن بعد هذا الغداء المتأخر لمشاهدة عازفة التشيللو الأرجنتينية سول جابيتا التي تقدم مختارات من موسيقى فيفالدي في قصر الموسيقى «خيباو» لكن خديجة اقترحت:

ـ لماذا لا نأخذ الليلة راحة؟

ردت عزة:

ـ أنت تحبين فيفالدي، والعازفة مميزة، فضلًا عن فخامة المكان.

قالت خديجة:

ـ يمكن تعويضها.

ردت الأم:

ـ تتذكران متى كنا في «خيباو»؟

فتحت الأختان عيونهما متسائلتين؛ وتوجهت الأم بحديثها إلى خديجة:

ـ كان عندك تسع، أو عشر سنين. نمت بمجرد دخولنا، وظل بابا طوال السهرة فاردًا ذراعه، ماسكًا رأسك المستريح على ظهر الكرسي، حتى لا يسقط فتستيقظي.

fb/mashro3pdf

أخذت تحكي، بحيوية عن تفاصيل تلك الليلة، ثم مدت بصرها إلى البعيد، وبعد لحظات صمت، قالت:

ـ حتى بعد أن انتهى الحفل، ظللتِ نائمةً طوال الطريق، ولم تستيقظي إلا حين وضعك في السرير.

أخذت خديجة تستمع إلى الأم، مغتبطة بإقبالها على الحكي، على غير عادتها، بينما ظلت عزة شاردة، كأنها تحيا في قصة أخرى. أشارت خديجة إلى النادل، تطلب الفاتورة.

بعد العودة إلى الفندق، تسللت إلى غرفة عزة، التي رفضت الحديث في البداية:

ـ لا يوجد شيء، صدقيني.

ـ أصدق عينيَّ.

كأنها كانت تنتظر هذا الإصرار من خديجة، لكي تتخلى عن كبريائها، وتشرع في البوح.

ـ قررتُ الطلاق.

وشرعت تحكي عن الزوج البخيل، الذي اعتادت أن تتحمل ما يُقصِّر فيه طوال كل هذه السنوات، لكنها لم تعد تطيقه، بعد أن اكتشفت أنه يبيع الخمور والسجائر المعفاة من الجمارك في السوق السوداء، من خلال أحد أفراد الأمن بالسفارة. وصاحت:

fb/mashro3pdf

ـ تصوري، إلى هذا الحد؟!

بـدأت ترتجف غضبًا. احتضنتها خديجـة، وأخذت تربِّت ظهرها، ثم سألتها:

ـ متى اكتشفت ذلك؟

ـ اكتشفت بخله منذ البداية.

ـ ولماذا لم تقولي؟

ـ لم أشأ أن أخذل أباك، وبعد الإنجاب كنت مشفقة على الطفلين، لكنني لم أعد أستطيع.

تتذكر خديجة، حفاوة أبيها بعادل، لم يكن يناديه إلا «سعادة السفير». كان سعيدًا بصهره السفير الشاب، سليل العائلة الدبلوماسية.

لـم تترك عزة إلا بعد أن هدأت تمامًا، وعندما دخلت غرفتها ألقت بحقيبتهـا علـى طاولـة الزينـة. تخلصـت من فسـتانها، وألقـت به إلى الكرسي، وتداعت على السرير.

fb/mashro3pdf

10

مر يومان على محادثة سكايب، دون أن يظفر جمال برد من خديجة. عاد من المحكمة متوترًا، وغارقًا في عرقه. آخرج المفتاح، وقبل أن يديره في الباب فتحت له زينب مُهللة. عانقته وأفسحت له الطريق. سارت وراءه إلى غرفته. رسم على وجهه اندهاشًا سعيدًا بوجودها، بينما كان يمني نفسه بوحدة تتيح له التخلص من ملابسه دفعة واحدة والتوجه مباشرة إلى الحمام لاستعادة شيء من هدوئه بدوش فاتر. سألته:

ـ مفاجأة، أليس كذلك؟

ـ أنت التي عودتني على غيابكِ.

وتجاوزها متجهًا إلى غرفته؛ فتبعته. طوّح بالجاكت إلى السرير، تقدم من الخزانة، فتحها، استتر خلف ضلفة بابها، وشرع يستكمل خلع ملابسه، بينما بادر أخته:

ـ لو كانت هناك طريقة لاستئصال يوليو وأغسطس ورميهما في الزبالة، سأكون سعيدًا، ولا أريد تعويضًا.

fb/mashro3pdf

ـ ربما مجهود المشي وصعود السلم يا أبيه، الجو ليس حارًّا إلى هذه الدرجة.

لم يُعقّب، ولف المنشفة فوق وسطه، وبرز من خلف باب الخزانة، كانت زينب قد انسحبت إلى المطبخ.

عندما خرج من الحمّام وجد على المائدة طاجن سردين، وطبق سمك بربوني مقليًّا مقرمشًا كما يحبه. نقل حب السمك إلى زينب وعلّمها قاعدة في اختياره: أن تُحكِّم ذائقتها، ولا تخجل من شراء الأنواع الرخيصة كما يفعل محدثو النعمة «ثقي في لسانك، لا ألسن الآخرين» قال لها منذ بدأ يعتمد عليها في التسوق، فأرسى لديها الاعتقاد بنبل السردين، أما البربوني فهو بالنسبة له يشبه النحل في اجتهاده «مثلما يعفينا النحل من أكل الزهور، يحمل البربوني في لحمه طعم الجمبري الذي يتغذى عليه».

تأمل طبق السلطة المُعد بأناقة، وتطلع إلى زينب مداعبًا:

ـ هذا الاحتفال وراءه طلب أموال؟

ـ بل، خالص لوجه المحبة!

وضعت مبتسمة سلة الخبز على المائدة، ثم جذبت له كرسيه، وأشارت إليه بالجلوس.

بعد الغداء جلست في مواجهته، وسألته دون مقدمات:

fb/mashro3pdf

ـ ماذا بك يا أبيه؟

ـ لا شيء، ماذا ترين؟

ـ متأكد؟

حاول أن يصرف انتباهها، فسألها:

ـ قولي لي، متى نستطيع تحديد موعد زفافك؟

لم تجب، وأخذت تتأمله. وهي لعبة اعتادت أن تلعبها معه، لترى مدى اهتمامه بأي أمر يسألها عنه، وتيقنت أن وجدانه في مكان آخر، عندما لم ينتبه إلى أنه لم يحصل على جواب لسؤاله.

«كأنها لم تظهر إلا لتبدد راحتي» استحضر صورة خديجة خلال المحادثة، تذكر ملاحظته الأولى التي لم يجد من اللائق أن ينقلها إليها «تبدين على الشاشة أكثر نضجًا وامتلاء». رغم أنه يعرف أن الكاميرا تُضيف القليل إلى الأصل، لكنه استراح إلى الصورة التي أثارته، وجعلته يقتنع بأن علاقتهما منطقية، ولن يستهجنها الآخرون.

امتد الصمت، لم تقل زينب شيئًا، ولم يجد ما يقوله. تظاهر بالتثاؤب، وقام متثاقلًا إلى غرفته. ردّ الباب وراءه برفق، وتمدد على السرير.

«ماذا تريد منها؟». ومجددًا لم يجد جوابًا. ظل يتقلب على فراش وساوسه وتخيلاته «ما الذي أسكتها فجأة؟» يُقلّب في تليفونه، يحصي

fb/mashro3pdf

رسائله غير المردود عليها «هل أصابها مكروه، هل كانت تلعب معي لعبة، انسحبت منها بمجرد أن حصلت على استجابتي؟». يلقي بالتليفون إلى جواره بإهمال، ويستغرق مجددًا في الحيرة. لا يرسم في خياله تصورًا لسبب الغياب حتى يهدمه بآخر، ولا يستبد به القلق حتى ينسى كل ذلك ويضع تصورات لحياة ممكنة معها، وفي اللحظة التي يكتمل فيها البناء ينهار ويتحول إلى ركام من الإحساس بالهاوية؛ يفكر كيف سيبدو لإخوته، وكيف سيواجه أسرتها.

معظم من عرفهن من نساء البرزخ كن في مثل سنها، أو أكبر قليلًا. في البداية كان هو الأصغر سنًّا، وأخذ يتقدم في العمر، لكن موكلاته لم يكبرن، بقين حول الثلاثين دائمًا، المرحلة التي يترعرع فيها الطلاق، مع ذلك لم يشعر بفارق العمر مع أي منهن.

«المتزوجات يُنضجهن الضجر والهم» فكر، وأخذ يتحسس الفراش، تعثرت أصابعه بالتليفون، أخذ يفتح المحاورة بينهما من البداية، يراقب التصاعد.

بدأت إضاءة الغرفة بالتناقص، حتى استحكمت العتمة. على صوت أذان المغرب، اعتدل في سريره، وكتب إليها «مساء جميل مثل وجهك».

وأخذ يتطلع إلى الشاشة دقائق، ثم كتب مجددًا «أتمنى أن تكوني بخير». أرسلها، ثم كتب: «لم أشعر من قبل بأنني وحيد إلى هذا الحد، أحتاجك بشدة». لمس علامة «إرسال» وأغلق عينه مثل محارب

fb/mashro3pdf

صوب رصاصته على رأس مجهولٍ في الجهة الأخرى، ولا يريد أن يرى لحظة سقوطه. بعد لحظات قلق صار على محارب الحب التأكيد على مهمته برصاصة جديدة «أُقبّلك». كتبها وهزته قشعريرة، لكنه تجاسر وأرسلها.

يومًا بعد يوم، كان يزداد تشوشًا، بين مشاعر القلق، والشوق، والإحساس بالحرج «ليكن ما يكون» هتف، وكف حانقًا عن مراقبة تليفونه، لكنه لم يستطع إسكات الوساوس في عقله. بعد أسبوع كان في مكتبه عندما ومضت الشاشة بإشعار رسالة:

ـ آسفة، ظروف سيئة قطعتني عنك، لكنها انتهت على خير.

أخذ يتأملها، بينما يسمع نبض قلبه واضحًا. كتب:

ـ المهم أنك بخير الآن، عدت؟

ـ أمس، متى يمكن أن أراك؟

ـ الآن.

ردت بأيقونة الوجه المبتسم.

ـ يبدو أننا اعتدنا هذه الطريقة المريحة، لماذا لا تطلبينني؟

ـ أعطني خمس دقائق.

انتبه إلى الموكلة التي توقفت عن الكلام وأخذت تتابعه. أعاد التليفون إلى سطح المكتب، وأشار إلى المرأة لتستأنف، عازمًا على أن يتحكم في ثرثراتها كي تفرغ قبل الدقائق الخمس.

fb/mashro3pdf

ابتهج لرنين التليفون، بينما كان يودع الموكلة على باب غرفته. أشار إلى السكرتير بألا يُدخل الموكلة التالية. أحكم على نفسه الباب، والتقط التليفون قبل الرنة الأخيرة. استقبل صوتها مهللًا تتقافز من فمه الأسئلة عن غيابها، أخذت تحكي له عن أزمة قلبية تعرضت لها أمها جعلتهن يلازمن المستشفى في أمستردام. في صوتها إجهاد الخارج من معركة، لكنها مع ذلك كانت سعيدة.

ـ لو حدثت هذه الأزمة في مصر، فربما لم تكن لتنجو منها، استغرق نقلها إلى المستشفى خمس دقائق لا غير.

في نهاية المكالمة اتفقا على اللقاء في مساء الغد، وأصرت على أن تحضر هي لتقله بسيارتها. أغلق الهاتف، وأغمض عينيه مغتبطًا. ضغط زر الجرس، فجاءه السكرتير، طلب منه إدخال الموكلة التالية.

وقف في الزاوية التي اتفقا عليها بميدان المساحة. وصلت في الموعد بالضبط رغم الزحام الشديد. توقفت ففتح الباب ودس نفسه داخل السيارة. صافحها، مستبقيًا يدها في يده لحظات.

ـ وحشتيني.

ـ أنت أكثر.

لم يدرِ ما يقول بعد، لكنه أحس باضطراب مبتهج. زحفت السيارة أمتارًا معدودة ثم توقفت تمامًا وسط شبكة من الاتجاهات المتعارضة بالميدان. تلفت يمينًا ويسارًا وأمامًا وخلفًا قبل أن يُقبّلها. مدت يدها،

fb/mashro3pdf

ومسحت على ظاهر يده. أمسك بأصابعها. تركتها له، بينما أخذت تتطلع في عينيه، ثم تخلصت منه وأمسكت بعجلة القيادة لتتقدم في الأمتار التي خلت أمام السيارة. شغّلت أسطوانة غناء بالفرنسية.

ـ هذا جاك بريل، يغني عن أمستردام.

نظرت إلى اضطرابه الواضح في احمرار وجنتيه، على الرغم من افترار شفتيه عن ابتسامة استغربتها. أوشكت سيارتها على الاصطدام بأخرى؛ فأحس بالخوف. أخذت عيناه تتهلان إليها «ركزي في القيادة». مسّدت خده بظهر يدها.

ـ بوسعي حمل بطيختين، لا تقلق!

أخذ يتأمل ملامحها مجددًا؛ فأدرك أنها أجمل وأصغر من أن تكون حبيبته. كانت السيارة تزحف بهما ببطء، وكان يرتعش. سألته:

ـ هل تحب أن أغلق التكييف وأفتح الشباك؟

ـ براحتك.

فتحت الزجاج، واقتحم الهواء الساخن السيارة. مد غلام يده إليها بعقد من الفل، فانتفضت مذعورة من اليد التي كادت تلامس وجهها. أخرج جمال عشرة جنيهات ومنحها للصبي، وتناول منه العقد، بينما ضغطت زر إغلاق الزجاج بسرعة حتى كاد ينغلق على اليد الصغيرة المتعرقة.

fb/mashro3pdf

انتهى بهما الزحف إلى مطعم صغير بالزمالك على شاطئ النيل. لم يكن يشعر بثقل الوقت، بل بالاضطراب والخجل الذي لم يعرفه سوى في أحلامه المتكررة التي يبدو فيها مرتديًا بيجامة في ساحة الجامعة، أو عاريًا في لجنة الامتحان. كان المطعم خاليًا إلا من طاولتين اثنتين لجماعتين من المسنين يواصلون الثرثرة، إحدى الجالسات إلى الطاولة الأقرب منهما، انخلعت من حوارات جماعتها وأخذت تحدق فيهما باهتمام، أحس أنها تعرفه أو تعرف خديجة، بدأت ترمي نحوهما بابتسامات متطفلة.

استشعرت خديجة توتره، قالت باسمة:

ـ يُفترض أن أكون أنا المتوترة، لا أنت!

أمسك بيدها، مرتبًا، ثم رفعها إلى فمه وطبع قبلة متعجلة وأخفض يديهما المتشابكتين لتستريحا على الطاولة، أخذ يتحسس أطراف أصابعها.

ـ الأنامل الحبيبة.

ـ هي التي قادتك إليّ!

أومأ مبتهجًا، وتلفت مسترقًا النظرات إلى العيون المتطلعة نحوهما.

fb/mashro3pdf

11

لامتها أمها التي لم تزل تعاني آثار الجلطة بسبب طول بقائها خارج البيت؛ فأطرقت، ثم تعللت بتقاطع انشغالات الامتحانات، مع اللقاءات الخاصة باستعدادها لتسجيل الدكتوراه. بدت الأم غير مقتنعة:

ـ ليس لديك الوقت، حتى لتطمئني على أختك؟!

لم تسلم خديجة حتى من صديقاتها. على مجموعتهن الخاصة بالواتس آب كتبت إحداهن «يجب إبلاغ الشرطة عن تغيب خديجة» استدرجت العبارة تعليقات تومئ إلى وجود سر لا يعرفه. ردت خديجة بإرسال أيقونة الوجه الباسم.

صار غيابها واضحًا للآخرين؛ فهي مع جمال، أو تهاتفه أو تكتب إليه. حتى الأطروحة، التي تتعلل بها، أهملتها إلى أن تلقت رسالة استعجال من مشرفها «إذا لم تتقدمي بخطة البحث خلال أيام لن نتمكن من التسجيل هذا العام». تعرف أنه لن يكون بوسعها طلب مهلة جديدة. فتحت الملف على الكمبيوتر «سأرى ما أستطيع أن أفعل» وأخذت تستعرض ما لديها.

fb/mashro3pdf

بدأت بالاستماع إلى تسجيل حوارها مع شيخ القضاة «العمارة جزء مهم من منظومة العدالة، القاضي عندما يجتاز بهوًا من الأعمدة العالية يداخله شعور بأنه في معبد وهو كاهنه، وعندما يعتلي المنصة يشعر بالمسافة الكبيرة بينه وبين المتخاصمين، فيراهم بحياد وينظر إليهم بتسامح كما ينظر الله إلى البشر، هل ينظر الله إلى الكافر بحقد؟» يبدو صوتها في التسجيل خافتًا «كلا» فيستأنف الشيخ «من هذا التسامي والتسامح تأتي البشاشة على المنصة أو ما كنا نسميها: إشراقة القاضي، التي تجعله محل ثقة المتقاضين. عمارة دار العدل مثل لغة القاضي ومثل ملابسه، لا بد أن تكون شامخة ونظيفة» يأخذ الرجل شهيقًا طويلًا يزفره بأسف «الأشياء تتداعى جملة، عندما ظهرت بناءات العُلب الواطئة قليلة الهيبة اختفت إشراقة القاضي، ووقع الشك، ولم يعد القاضي يكتفي بمجد المنصة فظهر البعض في التلفزيون وخاضوا في وسخ السياسة».

كانت قد أخبرت جمال عن لقائها بالرجل، وأخذت تثير غيرته (He is so smart, so intelligent) اندمجت في متابعة التسجيل، مستعيدة أناقة الرجل الذي اقترب من المائة، بوجهه البشوش وحماسه. ثم أخذت تستعرض الصور والملاحظات التي دونتها. مفعمة بالطاقة التي استمدتها من صوت الرجل فتحت ملف خطتها، قرأت ما كتبته من قبل، وأحست بتفككه واضطرابه، دون أن تعرف كيف تبدأ من جديد؛ إذ تزاحمت لحظاتها مع جمال في مشاهد ملأت رأسها حتى لم تعد ترى شيئًا مما أمامها على شاشة الكمبيوتر.

fb/mashro3pdf

«لا يمكن حمل بطيختين في يد واحدة» قالت مستسلمة، وتركت المكتب وخطت نحو السرير. استلقت مغمضة عينيها في محاولة لإفراغ رأسها من أية أفكار، كما تعلمت في تمرين اليوجا. بدلًا من إجبار خيالاتها على الهدوء استحضرت لمساته؛ فتدغدغ جلدها بالرغبة.

«لكن ماذا عنه هو؟» في لحظات تُحسه مبتهجًا في حضورها، تحتضنها عيناه المشرقتان بالحيوية، فخورًا بها؛ فتشعر بأنه الرجل الذي تريد أن تقضي معه بقية عمرها، وفي لحظات تشعر به فاترًا ويتصرف بحذر وتوجس من نظرات الآخرين، يسبقها أو يتأخر عنها بخطوات كما لو كان ذلك عفوًا، لكنها تدرك أنه يفعل ذلك متمنيًا ألا يربط الآخرون بينهما؛ فتحس بالخذلان، وتتساءل عن سر ولعها برجل يصول ويجول بشجاعة في المحاكم ويفرض هيبته على الآخرين، وينتزع حقوق موكلاته، بينما لا يستطيع أن ينتزع حقه في حياة مختلفة.

أحست بجفاف في حلقها، فكرت في كأس من كوكتيل الفواكه الذي تُحسن إعداده، نهضت إلى الخزانة، خلعت الشورت والبلوزة، ووقفت عارية تستعرض قمصان النوم، التقطت الأسود المذهَّب الذي اشترته من مصمم في بومباي، ارتدته ومرقت من أمام المرآة، ثم عادت خطوات لتتأمل نفسها في القميص المستوحى من الساري. نثرت شعرها على كتفيها، وهتفت «يا مُبخت!» صيحة الفتى الحتال

fb/mashro3pdf

التي أطلقها في وجه جمال ذات ليلة بشارع المعز، عندما رآها تخاصره. فرح جمال كالأطفال بشغب الولد الذي رأى وجودهما معًا طبيعيًا، وأحس بالامتنان لصيحة الحسد التي شاغبه بها. عندما جلسا في مقهى الفيشاوي كان ممتلئًا بالحيوية والرضى «كان بودي أن أمنحه عشرة جنيهات وأطلب منه أن يقولها مرة أخرى» وأخذ يستعيد ما قاله الغلام على مسامعها؛ فمالت عليه كأنها تستريح على كتفه وانتقمت شحمة أذنه بشفتيها. اضطرب خجلًا، لكنه استعاد بهجته.

ارتدت روبًا فوق القميص، وغادرت غرفتها. تناهت إلى أذنيها أصوات صديقات أمها. جفلت دون أن تتمكن من التراجع. بدأت في هبوط درجات السلم. كانت أمها قد أخبرتها بدعوة صديقاتها على العشاء، لكنها نسيت.

قبل أن تغادر الدرجة الأخيرة، استقبلنها بصيحات الإطراء. توجهت إليهن، صافحتهن وجلست مجاملة عدة دقائق، متحملة ما اعتادته في زيارتهن من أسئلة حول زواجها وشكاوى أمها من رفضها الخُطّاب دون أن تتقدم بواحد من جهتها. ردت لتتخلص من الإلحاح:

ـ إن شاء الله عندما أجد الرجل المناسب.

واستأذنت متسللة إلى المطبخ. فتحت الثلاجة تتخير الثمرات التي ستصنع خلطة العصير التي تريدها.

عندما عادت إلى غرفتها بكأس العصير، جلست مرة أخرى أمام شاشة الكمبيوتر تعيد التقليب في ملفات الصور. أضاءت شاشة

fb/mashro3pdf

تليفونها برسالة من جمال «مشتاق». كلمة واحدة نافذة، ردت "I miss you" ولفحها الشوق. نظرت في ساعتها، لم تتجاوز التاسعة بعد. أرسلت «أنا قادمة» وقامت تُبدِّل ملابسها دون أن تنتظر رده.

كأنه كان يقف بانتظارها خلف الباب، فتح قبل أن تضغط زر الجرس. مرقت من جواره، وأغلقت الباب بظهرها، ولم تتحرك. تركت حمل جسدها على الباب وشبت على طرفي قدميها متعلقة برقبته. أطبق شفتيه على شفتيها.

ـ عُضني.

قالت محمومة، فضغط أكثر.

ـ عُضني.

كررت بإلحاح؛ فبدأ في عضعضتها برفق، ثم حملها من خصرها وأخذ يُقبِّل رقبتها ويمتص شحمتي أذنيها، راوغت حتى التقمت شفته وغرزت أسنانها الرفيعة فيها؛ انفلتت من فمه صرخة متحفظة. سمع حركة على السلم خارج الباب فسحبها إلى غرفة المكتب، وأغلق وراءهما الباب. مدت سبابتها إلى شفته ومسحت قطرة دم أرته إياها؛ فانطلقت يده لا إراديًّا تتحسس موضع الألم. أراحها على الكنبة وجلس بجوارها، اضطجعت مريحة رأسها على مخدع الكنبة، ممَّددة ساقيها فوق فخذيه. خلصها من الحذاء وأخذ يتأمل الهالة الحمراء التي شملت فمها وذقنها.

fb/mashro3pdf

اعتدلت وتعلقت برقبته؛ فاستنهضها ووقف في مواجهتها، التقم شفتها مجددًا ثم أدارها. مد يده وجذب سحاب فستانها، فلم تدعه يُكمل. وقف يتأمل التمثال الدقيق؛ ميريت آمون، لكن بجسد رهيف تلهبه القبلة وتترك بصمتها عليه.

أخذ يُقبِّل المساحة المكشوفة من ظهرها ويتأمل أثر القبلات. انزلقت من بين يديه، قفزت على الكنبة، ووقفت في مواجهته. احتضنت رأسه، وأراحت ذقنها فوقه، وأخذت تتنفس بعمق. تحسس بذقنه الخوختين الشقراوين، نكَّس رأسه، ومد لسانه يداعبهما، وشرع في التجرد من ملابسه. أمسكت بيده مجددًا، وهمست:

ـ أنا عذراء.

قالت، وامتثل، أخذ يتأملها، وتحول امتثاله إلى حبور. لم يجرب الألعاب نصف المحتشمة التي عرفها غيره في أيام المراهقة، أحس أنه يستعيد أيام الصبا والشباب التي سُرقت.

غمرهما السكون، بينما يطالع أحدهما الآخر، جلست؛ فجلس إلى جوارها، وتناول يدها متأملًا أصابعها. سألته:

ـ أليس لديك ما نشربه؟

ـ المطبخ لا يليق بك.

ـ كل ما يخصك يليق بي.

fb/mashro3pdf

هبّت واقفة، فقام وقادها إلى المطبخ الصغير، وضع الماء في الغلاية الكهربائية، وشرع في غسل كوبين، احتضنته من الخلف، فتعلقت عيناه بالنافذة الصغيرة المطلة على منور العمارة، وأغلقه بارتباك.

عادا بكوبي الشاي، وجلسا على المقعدين المتواجهين أمام المكتب. سألها عن أطروحتها. شجعتها طريقته الحنون في الإنصات؛ فقالت كل شيء عن نفسها، وشرع يبسط أمامها أسرار حياته، حتى هواجسه التي لم يبُح بها لأحد. تطلعت إلى عمق عينيه، وهمست:

ـ لم أعد أتصور حياتي من دونك.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

12

استيقظ منهكًا من أثر حلم حزين، كتب إلى خديجة «صباح جميل مثل وجهك» وسرعان ما ظهر إشعار الرد «صباحٌ حنون مثل قلبك». وكان هذا كافيًا ليغسل أثر الحلم، وأخذا يتقاذفان الرسائل.

البهجة البادية في ردودها، جعلته على يقين بأن كلماته تصلها بكامل طاقتها، وبأنه في غير حاجة لأن يؤكد لها أنه يعني ما يقول حقيقة، وأنه للمرة الأولى يكتشف إمكانية التطابق التام بين اللغة والواقع.

تطلع إلى ساعته «كيف نمت إلى هذا الوقت؟!» كتب إليها مودعًا، وغادر الفراش. بعد دقائق كان يهرول على السلم ليلحق بجلسة المحكمة. وجد أحد إطارات سيارته فارغًا، لم يتذمر أو ينتظر كي ينادي البواب لاستبداله، استوقف تاكسي ومضى. أخذ يتأمل الطريق المزدحم، دونما إحساس بالقلق من تأخره عن القضية التي سيترافع فيها اليوم، بل في قضيته الخاصة «أين ومتى سنلتقي الليلة، ماذا سأرتدي؟».

fb/mashro3pdf

لـم يكن مهملًا لمظهـره في يوم من الأيام، لكـن صورته في عيون الآخرين لم تُمثل له هاجسًا إلا بعد ظهور خديجة. أخذ يعتني بجسده. وضـع خطة للمشـي، خلّصته من نصف كرشـه، دون يقيـن بأن منظره بـات لائقًا بحبيبـة منمنمة كدمية. قبل كل لقاء يقضـي وقتًا طويلًا أمام المرآة، يطالع وجهه متأسيًا «لو كانت هنالك جراحة تقص الثلاثين عامًا الزيـادة!» يحمل بطنه علـى راحتيه، يبدأ من الخصريـن، ويحرك كفيه حتى تلتقي أصابعهما عند سرته، ليُقدِّر حجم التغير، ويتمنى أن تلحظه خديجة.

كانـت الرشـاقة التـي تعنيه في السـابق هي رشـاقة الجملـة، وكان سـعيدًا بهالة البلاغة التي تجلله كإكليل غار، رسَّـخت صورته كرجل من مجاز، لا يرى الآخرون ترهل جسده، ولا يدققون حتى في ملامح وجهه. لم يكن ينشـغل بمعرفة رأي نسـاء البرزخ فيـه كرجل؛ فالمرأة التي تسدد أتعابًا أو توجه كلمة شكر، لا تتوقف أمام وسامة من تكافئه، بـل أمام عمله، وتلك التي تضطجع معـه انتقامًا، لا يكون هو الحاضر في ذهنها، بل الرجل الآخر، وكان بوسعه دائمًا أن يُميِّز في صرخة هذا النوع من النساء، الطعم المالح للقصاص، لا حلاوة النشوة.

اكتشافه لجسده وكفاحه من أجل تنحيفه ترافق مع اكتشافه للمدينة التـي تتراكـم علـى أشـجارها طبقـات السـخام ويرتفـع فيهـا ضجيج المركبات المتصارعة. انتبه مع التمشـية اليومية أن القاهرة لا تخلو من جمـال غافٍ، في مبنى هنا، وتمثال هنالك. مكّنته التعرجات العشـوائية

fb/mashro3pdf

في الشوارع الجانبية من خربشة طبقة العنف المتكاثفة على السطح في السنوات الأخيرة، واكتشاف الحنان القديم لمدينة لم يعرف غيرها في حياته، بينما جعلته لقاءاته المسائية مع خديجة يكتشف تفاصيل دقيقة لم يكن ليعرفها، لو استمرت مسيرته الحديدية في العمل. رأى معها أماكن ما كان له أن يحدس بوجودها، وعرف متعة التسكع بلا هدف، وقضاء الوقت في مقاهٍ ومطاعم حتى منتصف الليل. ولم تكن بهجة الصحو بلا ثمن. بدأ نومه يتشوش بأحلام غريبة، وعندما يستيقظ منهكًا يعتصر ذاكرته؛ يتمكن بصعوبة من تذكر مشاهد متقطعة غائمة؛ سيارة مسرعة تكاد تصرعه، كلب مسعور يقترب منه وهو عاجز عن الجري، يد تكتم تنفسه، وهو عاجز عن الاستغاثة، حتى الأحلام التي يرى فيها خديجة لم تكن تبعث فيه غير الحزن.

في المساء توجها إلى حديقة الأزهر لحضور حفل لفرقة شبابية متخصصة في أغاني الشيخ إمام. عندما ترجلا من سيارته، تعلقت بذراعه، وقالت:

ـ احك لي الحلم.

تطلع يمينًا ويسارًا، وأجابها:

ـ دعينا نلحق بالحفل.

رغم أن التفاتاته كانت خاطفة، إلا أنها لاحظتها؛ فسحبت ذراعها من ذراعه، وكررت طلبها:

fb/mashro3pdf

ـ لن يعطلنا أن نتكلم.

همس:

ـ بالأمس رأيت أباك.

وأخذ يتابع بعينيه أفواج الصبايا والشباب المسرعين، الذين يتجاوزونهم في غبشة الممر المتعرج بين الأشجار، باتجاه الحفل، وهمس مجددًا:

ـ كنت أُقبّلك أمام مصعد صدئ، يبدو في مبنى حكومي، لكنني كنت مدركًا أنه بيتك، ومر رجل وامتعض دون أن يقول شيئًا، وفهمت من نظرته أنه أبوك.

ـ ليته يعود، حتى لو ضربنا!

أحس التأثر في صوتها، فأخذ يصف لها ملامح الرجل النحيف، الأسمر، برأس أصلع مدبب.

ـ هذا ليس «بابي»، تذكّر جيدًا مَن الذي رأيته، لعله زوج واحدة من نساء البرزخ!

وأمسكت بذراعه مجددًا، ثم أفلتتها. ووصلتهما أصداء الغناء؛ فقادتهما إلى مكان الحفل. وقفا وسط الزحام، وجد نفسه يحاكي الشباب حوله. احتواها في حضنه، بتلقائية لا يُقدم عليها في أي مكان. بدت حالة التناغم في هذا الجمع جديدة عليه «لا أحد ينظر إلى غيره،

fb/mashro3pdf

أو يستهجن سلوكه أو مظهره» فكّر، وأخذ يتأمل الشباب الذين أطال بعضهم شعوره وعقصها في ذيل حصان، بينما حلقها غيرهم على الزيرو، يُدقق في كرنفال الألوان وملابس الفتيات من الشورت إلى الفستان، والجينز مع الحجاب، الأذرع العارية، والبلوزات الضيقة بلون اللحم، التي تقدم عُريا زائفًا.

حيوية الغناء أجبرت عينيه على التعلق بالفرقة كالآخرين، ينتظر الجملة التي سيهتف معها الجمهور «مين اللي يقدر ساعة يسجن مصر؟» أو «شيّد قصورك ع المزارع». جرفته الحماسة، وتشبثت ذراعاه بخديجة، وأخذ يهتف مع الشباب دون أي تحفظ، وأحس أنه جزء من جسد شاب عملاق، وتذكّر بشجن ما فاته أن يعيشه في الجامعة.

في طريق العودة، جلس وراء المقود صامتًا، يتساءل «إلى متى يمكن أن تمتد صلاحية هذه الأغنيات؟» يستعيد الصوت الهادر للشباب، وانسجامهم الذي صنعه تضامن الغضب، لا المتعة.

قبل أن تغادر السيارة على ناصية شارعها، أمسكت خديجة بيده، وسألته:

ـ انبسطت؟

ـ يكفي أنني معك.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

13

عندما أخبرتها عزة بموعد ورقم الرحلة التي ستعود على متنها، اندفعت تعدد لها التغييرات التي دخلت على الفيلا لاستقبالها، من تأثيث غرفة جديدة للصبيين، إلى تنظيف الفيلا وصيانة أجهزة التكييف. كانت تحاول إخفاء ضيقها؛ فراحت تصف بحماسة الاستعدادات التي لم تشارك فيها. كانت عزة تستمع صامتة، وانتبهت خديجة إلى أنها بدت فرحة بطلاق أختها. استدركت:

ـ لا يجب أن تشعري بالأسف، أنت بذلت كل ما أمكنك.

ـ على الإطلاق، هذا أفضل قرار اتخذته في حياتي.

لم يكن هذا هو التوقيت المثالي لعودة المُطلّقة. كان العام الدراسي يُلملم أذياله، فأخذت خديجة تهرول إلى الجامعة في الصباح، ثم تعود إلى أختها لتقضي معها أطول وقت ممكن، تصطحب الولدين في نزهات يلحان عليها، إذ يشعران معها بحنان الأم دون سلطتها، وبين ليلة وأخرى تخرج لملاقاة جمال المشغول هو الآخر باقتراب نهاية العام القضائي.

fb/mashro3pdf

تمكن منهما الإنهاك، بينما يريد كل منهما أن يبدو قويًا. وصارت مغتبطة؛ لأن معرفتها به تتعمق. لاحظت أنه يكون على راحته في الأماكن المزدحمة، والأكثر أرستقراطية، التي يطمئن فيها إلى أنهما ليسا هدفًا لنظرة متفحصة. تآلف مع مطعم في الزمالك يحتل حديقة فيلا وطابقها الأرضي. إذا لم يقترح اللقاء في المكتب، يختار مطعم الأجراس دون تردد. يصبح مستريحًا مع نفسه، ومنبسطًا، مع كأس نبيذ، محتميًا بالعتمة التي لا تخترقها سوى أضواء الشموع تحت خيمة الحديقة، أو بصخب الموسيقى والرقص في الصالة الداخلية، مع ذلك لا تمضي الأمور على نحو حسن دائمًا، فبينما كان يتابع نظرات الآخرين، بدأت تتابع نظراته للأخريات، حتى فاجأته ذات ليلة بسؤال مباغت:

– **Do you think, I am sexy?**

ارتبك للحظة كانت كافية لكي تشك في رده:

ـ شهية.

كانا في الصالة الداخلية لمطعم الأجراس، وكانا منهمكين في الحديث، عندما بدأت الموسيقى، وبدأ الكثير من الرواد يغادرون طاولاتهم إلى رقعة الرقص. شرد وتوقف عن الكلام، وأخذ يتطلع إلى أجساد الراقصات الرجراجة بتركيز أزعجها. فكّرت «ليس فرق السن وحده ما يفصل بيننا» وباغتته بسؤالها، بينما بدت تقطيبتها تحت تموجات الضوء المهتز؛ فاندفع يصف لها سعادته بكل لحظة يقضيها

fb/mashro3pdf

معها، والغنى الذي يحسه في حضورها، وفي كل ما يقولانه ويفعلانه معًا.

إطراء الروح، الذي قد يُسعد امرأة يفيضُ ثدياها من طوق فستانها، جاء بمفعول معاكس مع خديجة؛ لأن جمال بدا متعثرًا في أذيال كلماته، بينما يختلس النظرات إلى ردفين متفاخرين بالحلبة.

كأنها لم تسمع شيئًا من كلماته المتحمسة، التي اجتهد لتوصيلها إليها وسط صخب القاعة. قالت بإصرار:

ـ **سألتك عن الجاذبية الجسدية.**

رد بقُبلة في الهواء، فلم تقل شيئًا. وبعد لحظات نظرت إلى ساعتها:

ـ **تأخرنا.. I think we have to go.**

عندما عادت كان البيت صامتًا، صعدت إلى غرفتها، وتخلصت من ملابسها. لم تقوَ على إزالة خضابها، فاستلقت في الفراش منهكة.

لم يكن إنهاك الجسد هو ما تحسه بل إنهاك الروح، أخذت تستعرض اللحظات التي أغضبتها، مثل محقق يسترجع شريط كاميرا المراقبة «هل كنت على حق؟ هل بالغت في تفسير نظراته؟».

سمعت تكة وصول رسالة منه على الواتس آب، تطلعت في التليفون الملقى إلى جوارها على السرير، قرأت «وصلت بقلب ظمآن» تركت التليفون مجددًا بينما تتواصل تكات الرسائل، دون أن

fb/mashro3pdf

تجد الفضول لقراءتها، مستغرقة في تأمل اضطراب مشاعرها الذي تعانيه منذ تعارفهما، بين الغبطة الهشة في اللقاءات المسائية، والفرح العارم في الرسائل المتقافزة بينهما طوال اليوم.

أحيانًا ينسى كل شيء، ويصبح لها وحدها، منسجمًا، ومتدفقًا، يهتم بها، وفجأة ينكمش على نفسه تحت نظرة مستطلعة، فيصيبها بالإحباط. تعرف أنه يحاول تجاوز ذلك، ولكنه لا شعوريًا يتلفت حوله عند دخولهما إلى أي مكان، وعندما يتحدث مع أحد في حضورها، يبدو وكأنه يستجديه كي يقبل بوجودهما معًا.

لم تعد تعنيها الكلمات، بل النبر. كلمة «حبيبتي» عندما يهمس بها في التليفون أو يكونان وحدهما، لها معنى مختلف عن ذلك المعنى الذي تتلقاه في حضور الآخرين. يقولها مصمتة بطبقة باهتة؛ فتبدو موجهة إليهم، وكأنه يريد أن يقول لهم «هذه ابنتي». أحيانًا تحتد عليه «لست صغيرة، المشكلة في داخلك» لكنها تعتذر فورًا؛ فهي تعرف أنه يبذل مجهودًا ليستوعب.

لا تقترب من اليأس، إلا لتعود وتتفجر طاقاتها في العناد. بدأت تستخدم طلاء شفاه داكنًا، ترتدي فساتين طويلة فوق أحذية بكعب عالٍ، تُنحِّف حاجبيها، وتستخدم حمالات صدر سميكة منتفخة. لكنها لا تعود محبطة من لقاء في المساء إلا لتستيقظ على بهجة رسائله الجريئة، والخليعة أحيانًا، حتى إنها لا تستطيع الاحتفاظ بها، لكن تظل تتأملها، ولا تغادر وسادتها، إلا وقد عرفت بأي موضع من

fb/mashro3pdf

جسدها ستعتز اليوم. في كل مرة تتوقع أنه سيبدأ في التكرار، لكنه يفاجئها دائمًا بأوصاف لم تُخمِّنها. كادت تدمن الرجل الذي يطل من الكلمات، تحس أن قبلاته في الأيقونات المرسومة في الرسائل، أكثر حرارة من قبلات ذلك المتردد الذي تلقاه في المساء.

واصلت تقلبها في الفراش، حتى تجاوزت الساعة الثانية فجرًا، تذكرت الوعد الذي قطعته على نفسها من أمستردام «الرحلة القادمة معًا» وأحست أنها وجدت أخيرًا الحل «السفر سيحرره».

عندما فاتحته، تحمس:

ـ أي توقيت في أغسطس، سيكون ممتازًا.

أخذت تفكر في ذريعة مقبولة للسفر، وشرعت تبحث على الإنترنت عن أي مؤتمر أو ورشة عمل للعمارة. وقعت على مؤتمر تستضيفه كلية العمارة بجامعة سابينزا في روما تحت عنوان «عمارة الآلهة والبشر». أعجبتها الفكرة، التي تقارن بين عمارة المعابد والمقابر وعمارة المساكن في مختلف العصور والحضارات «روما يجب أن تكون مجرد منطلق لمكان اصطياف» فكرت، وأخذت تُفاضل بين بحيرة كومو وجزيرة كابري، وسرعان ما استبعدت هدوء وتحفظ كومو ومحدودية خيارات التسكع في المنتجعات المحيطة بها ليلًا، وتصاعدت حماستها لصخب الجزيرة. هتفت «ما لن تصلحه كابري، لن ينصلح أبدًا».

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

14

في مطار روما، استقبلهما السائق، الذي أرسله الفندق. اتجها نحوه. عرّفهما بنفسه.

ـ ألبرتو.

صافحاه، والتقط منهما الحقيبتين الكبيرتين، وتقدمهما. تركهما عند زاوية أمام الباب، وطلب منهما الانتظار، لحين إحضار السيارة.

أخذ جمال يتأمل الأفق. جذبته خديجة من يده لكي يُفسح للركاب المتذمرين خلفهما. وقف بجوارها على حرف الرصيف دون أن يتوقف عن تأمل السماء.

ـ هذا هو النور الذي حلمت به.

وأخذ يُحدّثها عن صورة إيطاليا، التي رسَختها في ذهنه الأفلامُ الأمريكية.

ـ عندما تنتقل اللقطة إلى إيطاليا يغمر الشاشةَ مثل هذا النور.

كانت الأرض مبللة بأثر مطر خفيف، بينما تختلط رائحة الهواء المشبع بالأوزون والرطوبة مع لسعة حر محتملة. سرح جمال بحثًا عن السر الذي أهاج شعورًا بالحنين غمره، وهتف بصوت مسموع:

fb/mashro3pdf

ـ وجدتها!

نظرت إلى عينيه الفرحتين؛ فانتقلت إليها عدوى الفرح وجعلتها تتخلى عن الروح العملية التي تتسم بها في لحظات كهذه.

ـ ماذا وجدت يا دُبي الحبيب؟

ـ طفولتي!

أجابها، وأغمض عينيه. صار جفناه المسبلان شاشة عرض. رأى نفسه طفلًا يجري تحت المطر، بين أقرانه، وأمه تركض خلفه، بيدها بلوفر ترجوه أن يرتديه. تلك اللقطة التي كانت فيها مفعمة بالشباب والحيوية، وظلت أيقونة للأمومة في ذاكرته، رغم أنها عاشت حتى اكتهلت وذوت بفعل فشل كلوي برى عظامها حتى صارت بحجم طفلة خفيفة هشة عند موتها.

بدا متحمسًا للكلام، وربتت خديجة يده، مشغولة بترقب السائق، الذي وصل وترجل مهرولًا. التقط الحقيبتين وأودعهما صندوق السيارة في لحظات، ثم فتح الباب الخلفي لخديجة، وهرول إلى مقعد القيادة، بينما استدار جمال ليركب إلى جوار خديجة، من الباب الآخر. انطلقت السيارة على الطريق الملتوي بين منشآت المطار، وسرعان ما استوت على الطريق السريع، على الجانبين تتناوب الهضاب التي تغطيها أكمات الأشجار، مع سهول ممتدة مغطاة بالحشائش.

fb/mashro3pdf

توقفت السيارة في إشارة ضوئية يتفرع عندها الطريق. تطلع إليهما ألبرتو في المرآة، وسأل جمال:

ـ ابنتك؟

جفل لحظة، ثم أجابه:

ـ نعم.

اندهش ألبرتو من الحدة التي رد بها، وقلَّب عينيه بينهما مرتبكًا، ثم سحب نظرته إلى الأمام مترقبًا لحظة الانطلاق، بينما تشرَّب وجه جمال مشاعر الغضب التي خلفَّت وراءها خجلًا حزينًا تعرفه خديجة. زحفت حتى التصقت به، لفَّتْ ذراعها حول رقبته، وجذبت وجهه نحوها، أزاح ذراعها برفق متطلعًا إلى السائق. التقطت يده، وشابكت أصابعها في أصابعه، وأراحت يديهما على فخذها. همست:

ـ لماذا لم تقل له: خطيبتي، حبيبتي؟

ـ ليس شأنه.

تغير ضوء الإشارة إلى الأخضر. صارع ألبرتو رتل السيارات المنطلق حتى استوت السيارة على التفريعة الصحيحة من الطريق. تطلع في المرآة مجددًا فاصطدمت عيناه بعيونهما. سحب جمال يده من يد خديجة. عاد ألبرتو يسأل:

ـ من القاهرة؟

fb/mashro3pdf

ردت خديجة:

ـ نعم، هل زرتها؟

ـ أتمنى يومًا، كنت في شرم الشيخ منذ عامين، أنا وأسرتي. استمتعنا كثيرًا، هل الأوضاع جيدة الآن؟

شرعت تجيبه بإنجليزية ذات لكنة إيطالية، تُمدِّد نهايات الكلمات. نظر إليها ألبرتو في المرآة، وعاجلها ضاحكًا:

ـ هذه هي إنجليزيتنا، لكنها تفي بالغرض!

ردت مؤكدة حبها للغة الإيطالية:

- Non c'è nessun problema..mi piace molto la lingua italiana.

ابتسم، وشرع يحدثها بالإيطالية، بينما ظل جمال صامتًا، تاركًا أصابعه في قبضتها، أخذ يتطلع إلى الخارج متأملًا أشجار الصنوبر عالية السيقان، بقممها التي تبدو مثل رؤوس بروكلي ضخمة. أخذت السرعة تتناقص مع الاقتراب من المدينة، حتى صارا في قلب الزحام.

أمام مكتب الاستقبال بالفندق، اكتشف جمال أن الحجز لغرفتين. خبَّأ شعورًا بالارتياح، ونظر إلى خديجة معاتبًا، دون أن يتكلم. قلَّبت وجهها بينه وبين الموظفة، وهمست:

fb/mashro3pdf

ـ جمال! أخجل، وأريد مساحة خاصة.

كتمت موظفة الاستقبال ابتسامة؛ فسألتها خديجة:

ـ تتحدثين العربية؟

ـ أنا لبنانية أعيش هنا من عشرين سنة.

أعادت الموظفة إليهما جوازي السفر مع بطاقتي البابين. وهتفت:

ـ مرحبًا بكما.

في المصعد شبّت خديجة وعانقته، تركَ نفسه في حضنها حتى انفتح الباب في طابقهما، فهرولا خارجين. أخذا يطالعان أرقام الغرف في الممر. راجعت رقمي الغرفتين على مظروفي البطاقتين. توقفت أمام غرفة جمال، وفتحتها. انطلقت أمامه نحو الستائر، أزاحتها وأشارت إليه ليرى الأفق الممتد فوق أسطح نظيفة تنتهي بغابة كثيفة.

ـ انظر، هذه بياتزا ديل بوبلو، والأشجار خلفها هي حدائق قصر بورجيزي.

جذبها نحوه. رفع رأسها باتجاهه، قرّب شفتيه من شفتيها؛ فنكّست رأسها. استراحت شفتاه على جبهتها، أخذ يُقبلها بسكينة، ثم رفع ذقنها في راحة يده، ونظر في عينيها، مرغ وجهه على وجهها، وشرع يتحسس مقدمة أنفها برأس لسانه. طوقها بذراعيه، وتقهقر بها إلى السرير. رن جرس الباب. نهضت لاستقبال الحمّال، بينما تخفي براحة يدها توهج وجهها من أثر التقبيل. أشارت إلى حقيبة جمال وطلبت من الحمّال

fb/mashro3pdf

أن يتركها، وأشارت إليه ليتبعها إلى غرفتها بالحقيبة الأخرى.

أغلق جمال الباب ووقف يتأمل نفسه في المرآة، يقترب مدققا ملامح الوجه الذي لم يعد يعرفه، منذ أن عرف خديجة. صار يقابله كل مرة وكأنها المرة الأولى «أنت هرِمٌ يا رجل، هرِمْ!». أخذ يبتعد عن المرآة خطوة بعد خطوة ويراقب قسوة خطوط الزمن إذ تخف خطوة بعد أخرى. توقف ودار نصف دورة ليرى اللقطة الجانبية لوجهه التي يبدو فيها أقل سنًّا.

جلس على حرف السرير يحاول استيعاب الغرفة، حدَّق في المرآة، يدقق في ملامحه مجددًا من تلك المسافة، ليس لتقدير هيئته هذه المرة، بل للتعرف على جمال منصور، المحامي الذي يعرفه «أنت، هو بعينه» قال لنفسه بصوت مسموع، ليستوعب حقيقة وجوده في رحلة وافق على القيام بها مسرورًا عندما اقترحتها خديجة. دب تنميل في جسده وغمره مجددًا التباس المشاعر الذي يعانيه تجاهها، بين الامتنان؛ لأنها فتحت عينيه على الكثير من الأشياء في نفسه وفي الحياة من حوله، وبين الحنق عليها؛ لأنها الوحيدة التي يحس معها بافتقاره إلى الوسامة والشباب. لا يحس بأنه وجد آخيرًا من وضعت في يده مفتاح الحياة الذي افتقده طوال ثمانية وخمسين عامًا، حتى ينقلب، ويحس تجاهها بالغضب الذي يستشعره أعمى تجاه يد امتدت وغيرت مواضع الأشياء، التي كان يحفظها عن ظهر قلب.

fb/mashro3pdf

انعكس تذبذب مشاعره في سلوكه غير المتوازن وردود فعله اللا متوقعة. لهفة شديدة وإلحاح من أجل اللقاء حتى إذا تركت ما بين يديها وجاءته يستقبلها بفتور. أحيانًا يفعل العكس؛ يظل يتعلل بالأعذار للهروب من موعد، وعندما يجد نفسه بعيدًا عنها تبتهل عيناه إلى جمالها، ويغمره السرور، ثم لا يلبث أن يتسرب إليه التوتر، ويبدأ في التلفت حوله ليعرف إن كان هناك من يعرفه. كيف سينظر إليه؟ رجل نذل أغوى قاصرًا؟

نهض، ووقف أمام الخزانة. شرع في خلع ملابسه وتعليقها بعناية. صار عاريًا تمامًا، شد قامته، وشفط بطنه؛ فبدا ممشوقًا. تنفس بارتياح، ثم انحنى على الحقيبة، فتحها والتقط غيارًا داخليًا. دخل إلى الحمام، وقف تحت الرشاش الساخن مستلذًا الخدر الذي يبثه بأطرافه. جفف جسده جيدًا وارتدى بيجامته، وتوجه إلى الستائر، أحكم طبقتيها فغمر الظلامُ الغرفة. استلقى على السرير مغمضًا عينيه. أخذ يَعُد في ذهنه من واحد إلى مئة، مثلما اعتاد عندما يريد استدراج النوم، لكن رأسه ظل مستيقظًا يُرهف السمع لصمت الغرفة.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

15

هاتفت أمها تطمئنها على وصولها. أخذت تصف الفندق، وتُحدثها عن المؤتمر. سألتها:

ـ متى يبدأ؟

ـ في العاشرة صباحًا.

عقّبت الأم بأسى:

ـ كان يجب أن آتي معك.

ـ مامي، كنت ستشعرين بالملل وحدك. جلسات المؤتمر طوال اليوم.

عندما تودعتا. أحست خديجة بالارتياح. وضعت التليفون على طاولة الزينة، خلعت فستانها وعلّقته بالخزانة، وبدأت في فتح حقيبتها. استخرجت الملابس التي تكفي لأيام روما ورتبتها في أماكنها، رصت أدوات زينتها على التسريحة وأدوات النظافة على طاولة الحمّام. وحملت بُرنس الاستحمام، ومضت لتغتسل. تأملت نظافة الأشياء، وارتدت قفاز التنظيف الذي تحرص على حمله بين

fb/mashro3pdf

أشياتها، أحكمت سدادة تصريف البانيو وأفرغت زجاجة من شامبو الفندق وفتحت القليل من الماء، وطوقت البانيو جيدًا، ثم فتحت الماء مجددًا وتركته ينساب جارفًا الرغوة حتي اطمأنت إلى النظافة. ضبطت حرارة الماء على درجة الدفء التي تحبها، نزعت قميصها واعتمرت الواقي البلاستيكي حتى لا يتبلل شعرها ودخلت تحت الدوش. بعد أن اغتسلت جيدًا أغلقت فتحة الصرف، وتوسدت البانيو وأخذت تراقب ارتفاع الماء على ساقيها. عندما غمرتها المياه أغلقت الصنبور وأغمضت عينيها، مستمتعة بدغدغة الماء، حتى أحست بتناقص الحرارة فقللت إحكام سدادة الصرف، ثم وقفت واغتسلت مجددًا، وارتدت البُرنس ومضت إلى واجهة الغرفة تتأمل الأفق المُذهّب بشمس آخر النهار، مستمتعة بلمسة برد خفيفة تدغدغ جسمها. زفرت ارتياحًا ببعدها عن رائحة الدخان وقسوة أغسطس في القاهرة «الأقل من جهنم بدرجتين» كما تصفه عادة.

أحست بروحها خفيفة؛ فعادت إلى الحمَّام، خلعت البُرنس وعلَّقته بالمشجب، ومضت عارية إلى الخزانة، التقطت الكيمونو الأبيض المزين بفرع كرز مزهر، ارتدته، ووضعت على وجهها لمسات زينة خفيفة، ثم غمرت نفسها بسحابة من العطر.

وارب جمال باب غرفته، ووقف يتأملها. انسابت من تحت ذراعه ومرقت إلى الداخل. أغلق الباب، وأمسك بأنامل يديها، رفعهما إلى شفتيه يُقبلهما. أحست في قبلاته زفرات الأسى التي تعرفها، فأدركت

fb/mashro3pdf

أن سؤال السائق لم يزل يؤلمه. سحبت يديها من يديه وتجاوزته إلى عمق الغرفة، جلست على حافة السرير بينما دار من الناحية الأخرى، واستلقى خلفها، يطالع وجهها في مرآة التسريحة المقابلة.

ـ تريد أن تنام قليلًا؟

ـ أشعر بالنعاس تحت جفوني، لكن رأسي يقظٌ.

أخذت تزحف باتجاهه حتى لاصقته. طوقها بذراعه، وأمالها فاستلقت إلى جواره. سكن في حضنها ينصت إلى نبضها تحت ذراعه التي تطوق صدرها، تهبط وترتفع مع إيقاع تنفسها المنتظم. جذبها إليه أكثر، وأخذت أصابعه تتلمس طريقها إلى عُقدة حزام الكيمونو.

أمسكت يده، وهمست:

ـ لم يبق الكثير على موعد الأوبرا.

ـ هل لا بد من الخروج الليلة؟

غمزت له باسمة في المرآة. واحتفظت بيدها فوق يده المستريحة على بطنها. ألصق شفتيه بظهرها، وأنصت مجددًا لتنفسها. أخذ يضبط إيقاع شهيقه على إيقاعها، تمادى في اللعبة واستغرقته. بعد دقائق أحس بانتظام تنفسها الرهيف، وسرعان ما سحبته وراءها للنوم.

عندما أيقظته لمساتها، لم يتبين إن كان الوقت مساءً أم صباحًا، ولم يعرف أين هو. أخذت تهزه:

fb/mashro3pdf

ـ دُبّي الكسلان.

لم يرد، مستغرقًا في امتحان ذاكرته. انزلقت من السرير، وفتحت النور. عادت إليه، وهزته مجددًا:

ـ ارتدِ ملابسك وتعالَ إلى غرفتي أريد أن أستشيرك فيما أرتدي.

عندما خرجا، لم يكن بالشارع الضيق سوى القليل من المشاة، سارا ذراعًا بذارع، أخذ ينصت لدقات كعبها العالي على رصيف الحجارة البازلتية السوداء، وأخذ الزحام يتزايد حولهما، مع الانعطاف إلى شارع أوسع. بعد لحظات، صارا في ساحة واسعة مزدحمة بالبشر الصاخبين، تتوسطها مسلة فرعونية. قالت خديجة:

ـ بياتزا ديل بوبلو، أشهر ساحات روما.

قطعا الساحة إلى أحد الشوارع المتفرعة منها. أشارت خديجة إلى لافتة الشارع على جدار البناء الأول:

ـ ديل كورسو. أرقى شارع تجاري في المدينة.

ـ إذا كانت الكنيسة بعيدة نأخذ تاكسي.

ـ لا، هي قريبة جدًّا.

وأشارت إلى برج الكنيسة، وسحبته من يده إلى الرصيف، تمس الأرض بخفة وهو يجتهد ليضبط إيقاعه على خطوها.

في مدخل الكنيسة وقفت سيدة تدقق البطاقات. سلّمتها خديجة نسخة مطبوعة من الحجز الذي أجرته عبر الإنترنت. كانت المقاعد

fb/mashro3pdf

التي لا تتجاوز الخمسين شبه مكتملة، والحضور يثرثرون بهمس يتردد صداه في بهو الكنيسة القوطية. أخذا مكانيهما بين الحضور.

همس في أذنها مبتهجًا:

ـ أجمل وظيفة لدور العبادة!

ـ نعم؛ أصبح هذا معتادًا في أوروبا.

مالت عليه وخطفت قبلة من خده. ضغط يدها في يده. خفتت الإضاءة فانغمرت القاعة في الصمت. أقبل شخص من ظلام البهو الداخلي. دوت القاعة بالتصفيق، قدّم الرجل اختصارًا لموضوع الأوبرا، لم يلتقط منه جمال سوى اسم العمل «لابوهيمي» وأخذت خديجة تهمس إليه بملخص القصة. بعد أن انتهى مقدم العرض من كلماته، جاءت الممثلة فقدمها بدعابات، تجاوبت معها الصالة بالضحك، وتوالى دخول الممثلين وتوالى التصفيق كلما دخل أحدهم، ثم بدأ العرض.

لم يُفلت جمال يد خديجة من يده. بين وقت وآخر يرفعها إلى شفتيه ويُقبلها، بينما يتابع بشغف، تحمله موسيقى بوتشيني عاليًا وتحطه على سطح بحر هادئ، ومع تقدم العرض أصبحت مشاعره مركبة، بين الحزن على ميمي المريضة وفقر جارها الشاعر رودلفو وزمرة الفنانين، وبين الغيرة من سعادتهم التي يواجهون بها الفقر والبرد.

fb/mashro3pdf

بعد انتهاء العرض توجها لتناول العشاء. كانت الموسيقى لا تزال تتردد بقلبه. توقف فجأة، واستدار ليطالع وجهها:

ـ شكرًا حبيبتي، لا أعرف كيف أعبر لك عن شعوري الآن.

تعلقت برقبته وهمست:

ـ شكرًا لأنك معي.

شدد ذراعيه حول خصرها، تتنازعه البهجة والقلق، وحملها. قبّلها على شفتيها. أنزلها برفق، واستأنفا السير. «الحرية جميلة» يعرف أن الاحتضان والتقبيل في الشارع من الأمور العادية في أوروبا، لكن المعرفة لا تعني شيئًا دون أن يختبرها المرء بنفسه. همس:

ـ أشعر أنني إنسان.

وأخذت أصابعه تتلمس كفها في يده.

لم يكن المطعم بعيدًا. استقبلتهم النادلة بانبهار بخديجة:

ـ انتبه سيدي، معك فتاة فاتنة.

ابتسما، وشكراها. تركت لهما قائمتي الطعام ومضت. جمع جمال راحتي خديجة واحتضنهما براحتيه. عاد أنين الكمان يستولي على أذنيه مع تموجات الحوار الغنائي العذب الذي لم يفهم منه شيئًا. من فرط التناغم الذي أحسه خطر له أن الموسيقى موجودة في كل مكان، تسبح في الهواء، ولم تبدأ الحاجة إلى تأليفها إلا بعد أن بدأ العيش في مدن حجبت أصوات الطبيعة، قال كأنما يخاطب نفسه:

fb/mashro3pdf

ـ لا يفعل الموسيقيون أكثر من إعادة تجسيد موسيقى الكون.

رأت خديجة السعادة في عينيه. سحبت يديها من يديه. أخرجت هاتفها، واقتربت منه. التقطت لهما صورة سيلفي. عادت النادلة تسجل طلبهما، وأخذت تتأمل خديجة:

ـ حضرتك فاتنة حقًّا.

أحست خديجة بتوتر خفيف اعترى وجه جمال، فهمست له:

ـ للأسف، لا يأتي تقديري إلا من النساء!

وداعبته بقرصة في خصره، ثم شرعت تُملي على النادلة طلباتهما.

ـ وماذا تشربان؟

أجاب جمال:

ـ نبيذ أحمر.

أخذت النادلة تعرض عليه أسماء الأنبذة، التقط أحدها، ونطق به دفعة واحدة، بصوت حرص على أن تسمعه من المرة الأولى؛ لأنه لن يستطيع أن يكرره. سجلت المرأة، وانسحبت بإيماءة مبتسمة.

في طريق العودة إلى الفندق كان الشارع ساكنًا، بينما صار الهواء نقيًّا تخالطه برودة منعشة. حملها بين ذراعيه وسار خطوات. تملصت منه ووقفت في مواجهته، احتضنته، وهتفت:

- I love you.

ضمها إلى صدره، ثم استأنفا السير.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

16

بياتزا ديل بوبلو في الصباح مختلفة. زحام البشر أكثر مما كان عليه في المساء، الحمام ينتشر في الساحة، يهدل بفرح، يجري على البازلت الأسود، بعضه منهمك في مغازلات، والبعض يفتش عن فتات من الخبز في الشقوق بين الأحجار، غير عابئ بالسياح المشغولين بالتقاط الصور، ولا بأفراد الخدمة المتجمعين حول عربتي شرطة وإسعاف، تقفان على زاوية الساحة.

«يجدر بهذه المسلة أن تكون في ساحة مصرية» فكّر جمال، بينما يتأمل قمة المسلة الفرعونية التي تلمع تحت الشمس. أحس برغبة عارمة في الحديث إلى الجالسين حول الطاولة المجاورة، ليقول لهم إنه من مصر، نظرت خديجة إلى حيث ينظر، وقالت معاتبة:

ـ تعجبك هذه الإسبانية السمينة؟

ـ من؟!

ـ هذه.

وأشارت نحو طاولة إلى يسارهما، تتقدمهما على الرصيف، تفحص جمال المرأة، وأجاب:

fb/mashro3pdf

ـ لو كانت تُعجبني لأخبرتك بصراحة، ولن أقول لك بم أفكر.

ـ كما تشاء، على كل حال رفيقها يُعجبني!

ومررت أظافرها فوق مرفقه معابثة، تلفت حوله، وسرعان ما تحكم في مشاعره لتبدو لفتاته طبيعية، لكن اضطرابه لم يفتها؛ فأحست بالفتور. نظرت في ساعتها.

ـ ينبغي أن نذهب.

غادرا المقهى، وقطعا الساحة خارجين من بوابة المدينة متخذين الطريق الصاعد نحو جاليري بورجيزي، القصر الذي بناه كاردينال من أجل حفلاته الصاخبة.

استنشق جمال رائحة العشب في الحدائق الممتدة. أشارت له خديجة نحو القصر، الذي بدا من بعيد مثل حلم صغير، وسط الخضرة متعددة الدرجات. قالت:

ـ هذه الحدائق كانت تضم جداول ماء، وحظائر طواويس ونعام وبجع وكركي، غير الحيوانات الأخرى غير المألوفة في إيطاليا.

أسرعت للالتحاق بطابور الدخول. تبعها دون أن ينظر إلى موقع أقدامه، معتمدًا على قيادتها، إذ تعلقت عيناه ببناء القصر الذي أخذ يقترب.

عندما وقف وراءها في صف الدخول، مال على أذنها، هامسًا:

fb/mashro3pdf

ـ منذ وصولنا لم أنظر إلى الأرض.

أجابته باسمة:

ـ نعم، روما ترفع الرأس.

فتح القصر أبوابه. انسابا وسط الحركة الرتيبة للداخلين، وعندما تجاوزا العتبة، انتحت به جانبًا، وأخذت تشرح له عمارة القصر.

ـ لاحظ هنا الأعمدة والأقواس التي تجدها في عمارة عصر النهضة.

يتطلع إلى حيث تشير، مرهفًا سمعه لصوتها الخفيض:

ـ لاحظ البذخ في تصوير الأسقف، والقليل من التمرد على التوازن الدقيق، وهو السمة الأساسية لعصر الباروك.

أمسك بها من خاصرتيها وشدها نحوه. لم يكن يشعر بأنه يريد أن يفعل ذلك حقيقة، لكنه أراد أن يختبر إحساس الحرية، ويُدرِّب نفسه على الانسجام مع هذه الحالة الجديدة. قبلها على جبهتها. انسحبت منه برفق، ومضت أمامه في دروب القصر الذي تبدو خبيرة به، وتحفظ محتوياته وأماكنها.

أخذ يلاحقها من غرفة إلى غرفة، يستمع إلى شروحها، ويحتفظ في رأسه بكل الأسماء التي يطالع أعمالها: كارافاجيو، رافييل، تيشن، روبنز، أنطونيو كانوفا، وغيرهم من النحاتين والرسامين الذين عاصروا بناء القصر أو الذين اقتنت الأسرة أعمالهم في مراحل لاحقة.

fb/mashro3pdf

أمام تمثال برنيني «اغتصاب بيرسفوني» شهق لمرأى أصابع أبولو المرمر، وقد غاصت في فخذ ابنة جوبتر. همس:

ـ كيف احتفظ الكاردينال بإيمانه بعد أن اقتنى هذا التمثال؟

ـ ولماذا لا تفترض أن إيمانه تعزز؟!

دار حول التمثال، وعاد ليتأمل دقة التفاصيل. جذبته من يده متجاوزة الأعمال الأخرى في البهو الكبير:

ـ لبرنيني عملان آخران هنا، أحب أن ترى الثلاثة متتابعة.

دخلا إلى غرفة جديدة يحتلها تمثال وحيد.

ـ أبولو ودافني. انظر! مرة أخرى يصور لنا اللحظة الأكثر درامية في أسطورة الحب اليونانية.

جمّدت عينا جمال على فم دافني نصف المفتوح بصرخة الكرب. أطلق صيحة دهشة. وأغمض عينيه كي يستوعب ما يرى.

ـ هذا كثير، أكثر من قدرتي على الاحتمال.

شدَّها صوب النافذة متطلعا إلى الأشجار، ليريح عينيه بجمال بسيط ومفهوم. خربشت تحت أذنه بأنمل سبابتها.

ـ ينتظرك داود النبي.

وسحبته إلى غرفة أخرى.

fb/mashro3pdf

ـ انظر! اختار برنيني اللحظة التي تسبق قتله لجالوت. داود يعض على شفتيه ويضيّق عينيه مُركزًا نظرته في نقطة ما على البعد.

إشراق الروح، الذي بدا مطبوعًا على وجهه، شجعها على استخدام كل قدرات الشرح التي تدربت عليها في محاضراتها أمام طلاب الفنون. واصلت تعريفه بتماثيل ولوحات القصر طبقًا لعصورها، لا طبقًا لترتيب الغرف في الطابقين. تشرح سمات العصر إجمالًا وتتوقف أمام القطع البارزة التي تمثله، وتوضح الفروق بين الأساليب المختلفة.

بين وقت وآخر، يلجأ جمال إلى أحد المقاعد المتاحة، ليس ألم ساقيه ما يحمله على طلب الراحة فحسب؛ بل اضطراب روحه أمام الجمال، وعجز ذاكرته عن اختزان كل ما تقوله خديجة.

اختتما جولتهما، بتمثال لامرأة مستلقية في عُري فينوس، يحتل سريرها المرمر فراغ غرفة، ولا يترك سوى ممر ضيق مزدحم بالسياح. تقدمته تشق طريقهما بين الطائفين. وأشارت:

ـ بولين بورجيزي، أخت نابليون وزوجة الأمير كاميلو بورجيزي.

ـ كم استغرق وقت استلقائها هكذا أمام المثَّال؟

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ هل تظنين أنه عشقها؟

fb/mashro3pdf

سأل بكل جدية، بينما جرت في خياله مقارنة بين خديجة والتمثال.

قالت:

ـ لا أريد منك إلا أن تأمر لي بتمثال كهذا.

ـ بوسعي أن أنحت لك واحدًا بنفسي.

وأحس أنه لم يكن في أي وقت ممتنًّا لكونه حيًّا مثلما هو الآن.

fb/mashro3pdf

17

بعد العشاء، عادا منهكين وسعيدين. سألها على باب غرفته:

ـ كم يلزمك لتغيير ملابسك، عشر دقائق؟

ـ عشرون.

هز رأسه موافقًا؛ فمضت إلى غرفتها. فتح بابه ودخل مباشرة إلى تليفونه الذي تركه بالغرفة منذ الصباح. وجد على الواتس آب رسالة منتظرة من زينب منذ ثلاث ساعات، انتبه إلى أنه لم يهاتفها أو يكتب إليها «لا يمكن حمل بطيختين في يد واحدة» قال لنفسه مقاومًا إحساسًا بالذنب داهمه. رد على رسالتها مستفسرًا عن حالها. أضاءت الشاشة بردها:

ـ كله تمام.

أنعشه ردها، وأخذ يكتب لها عن روما، بينما تصف له أحداث اليومين، لا شيء غير عادي، ولم تحمل ردودها المبتهجة ما يبرر إحساسه بالذنب، فكّر «تمضي الحياة على كل حال، لكن الذين يرحلون بخوفهم على أحبابهم لا يعودون من الموت ليدركوا هذه

fb/mashro3pdf

الحقيقة» انزلق إلى حالة من رثاء الذات، انتشلته زينب منها برسالتها الأخيرة:

ـ استمتع يا أبيه.

أرسل إليها أيقونة وردة، ووضع التليفون على الكومودينو. تخلص من ملابسه، رتبها بعناية في الخزانة، ومضى إلى الحمام.

عندما استمع للنقرات على باب الغرفة، جفف نفسه على عجل، وتدثر ببرنس الاستحمام، وهرول يستقبلها. شرع يتأمل تورد وجهها تحت ضوء الغرفة الشحيح، رأى شفتيها الرقيقتين أكثر امتلاء، بينما بدا جسدها أكثر غلامية في الشورت القصير والبلوزة القطنية المسترخية على نهديها الصغيرين. احتضنها، وتداعى مستلقيًا تحتها متشبثًا بقدميه على الأرض، بينما يُرضِّع وجهها بقبلات صغيرة متتابعة. انحسر البُرنس حتى أسفل بطنه، واستقرت خديجة في الفراغ بين فخذيه مستشعرة دفئه الآخذ بالتصلب؛ فجفلت، وانزلقت من فوقه. ضم فخذيه وسحب ساقيه حتى استوى على السرير. مدت يدها، وخفَّضت الإضاءة. انفلت رباط بُرنسه الذي انحسر عنه تمامًا؛ فصار عاريًا. حملها، وألصق شفتيه برقبتها، بينما أخذ يتلمس حدود جسدها النحيل. رفعها من كتفيها، وأخذ يتأمل وجهها الذي يبدو ظلًا في بصيص الضوء الضعيف الراشح من زجاج باب الحمَّام. أراحها مجددًا فوق جسده الوافر. التقم شفتها، وأخذ يعضعضها،

fb/mashro3pdf

مرهفا إلى استجاباتها، بينما يُركز كل خياله للاحتفاظ بصلابته الهشة. مدت لسانها المدبب في فمه. تسللت يده، تسحب عنها الشورت، فأمسكت بقبضته. شرع يهتز تحتها، وتتحرك فوقه بإيقاع حذر حتى انطفآ. انزلقت عنه، وأخذت تعالج الشرشف حتى حررت طرفه وتدثرت به. تبعها تحت الغطاء، ضمها إليه، وترك ذراعًا تحتها، بينما طوقها بالأخرى وفتح راحة يده محتويًا نهديها معًا، ولم يعرف متى غمره النعاس، ولا متى استيقظت خديجة، وانسحبت إلى غرفتها.

في الصباح، تناولا الإفطار في مطعم الفندق، قبل أن تخرج خديجة إلى المؤتمر. قالت بينما تودعه:

ـ كان بوسعك أن تأتي معي.

ـ لا داعي، سأستريح حتى تعودي.

ـ كما تحب، لن أتأخر، جلسة الافتتاح فحسب.

أحس بالارتياح للانفراد بنفسه. استلقى على السرير مستعذبًا الكسل الذي يثقل جسده، حيث لم تفلح القهوة الاسبريسو في تبديد النعاس «ليس لها سوى علاقة واهية بالقهوة» زفر متأسيًا، وامتلأ صدره برائحة القهوة التركية، التي تصنع مع السيجارة الصباحية المفتتح البهيج ليومه.

أغلق عينيه محاولًا استدراج النوم، لكن نعاسه أخذ يتبدد تحت دوامات التفكير التي أغرقته، فاعتدل. حشا الوسائد الطرية خلف

fb/mashro3pdf

ظهره، وتناول الكتاب من فوق الكومودينو. «أصداء السيرة الذاتية» لنجيب محفوظ.

أخذ يُقلِّب الصفحات، يتوقف أمام المقطوعات التي يحبها أكثر، ويميز كلًّا منها بنجمة حمراء صغيرة، وضعها في هامش الصفحة. مقطوعة بعد أخرى غمره الشجن. دائمًا ما يصل إلى ذات النتيجة بعد التقليب في الكتاب الذي يسميه مصيدة الحزن، ولم يحمله معه إلا لصغر حجمه.

طوى الكتاب وأخذ يستعرض الأخبار في الصحف المصرية على شاشة تليفونه. كل شيء على حاله، الإنجازات الاقتصادية الضخمة جنبًا إلى جنب مع جرائم العنف الأسري بسبب الفقر. وضع التليفون جانبًا. أحس أن وقع الأخبار عليه في هذه الغرفة الصامتة بروما أقل من وقعها عليه في القاهرة، كأنها تحدث في مكان لا يخصه «هل صرت إيطاليًّا في يومين؟!» قال مخاطبًا نفسه، وأغلق عينيه منخرطًا في تمرينه اليومي الذي يواظب عليه منذ سنوات طويلة. لا يغادر بيته كل صباح، إلا بعد أن يسترجع الكلمات الضخمة، التي يقرأها في الصحيفة، ويردها إلى معانيها الأصلية «استخدام الكلمات في غير مواضعها هو عملية تسميم للغة، ولا بد أن يبقى هناك من يتذكر أن الخسة ليست النبل، والخيانة ليست الوفاء، والفشل ليس نجاحًا».

سمع أصوات عمال التنظيف في الممر، قام إلى الباب، تأكد من إضاءة علامة «عدم الإزعاج» واستلقى على السرير مجددًا. مد يده

fb/mashro3pdf

إلى ريموت التلفزيون، وأخذ يقلب بين القنوات، لم يعثر على واحدة عربية أو إنجليزية، توقف عند قناة إيطالية تعرض مسلسل رسوم متحركة، جرفه النوم تحت إيقاع الشقشقات الطفولية في اللغة التي أحب موسيقاها.

لم يشعر بدخول خديجة إلا بعد أن غطت عينيه بيدها. استيقظ مضطربًا، ثم أمسك بيديها. وجذبها؛ فجلست على حرف السرير. طوقها وشدها لتضطجع في حضنه، فتملصت منه، استنشقها بعمق، فضحكت:

ـ لن تنال الذي في بالك.

ـ لكنك عائدة من الخارج!

أحست بالغبطة والإثارة، مثلما تشعر كلما استنشق رائحتها بنهم، حابسًا رائحة عطرها في صدره. قال لها ذات مرة «أريد التأكد من أنك تتعرقين ككل البشر» اعتبرت ذلك أجمل إطراء سمعته في حياتها، ولم يصارحها بأنه يبحث عن رائحة عرقها، لتكبر في عينيه بضع سنين.

جذبها مكررًا المحاولة، ضحكت مجددًا، وأخذت توقع بأصابعها على صلعته.

ـ قم، ارتدِ ملابسك، لنخرج.

أمسك بيدها وقبّلها:

fb/mashro3pdf

ـ كيف كان افتتاح المؤتمر؟

ـ ممتاز.

ـ احكِ لي.

ـ سأحكي لك، ونحن نتمشى، انهض، لدينا الكثير الذي نراه اليوم.

جذبته من يده؛ فنهض يستعد، بينما أخرجت تليفونها، وأخذت تتأمل الصور التي التقطتها للمؤتمر. صور جلسة الافتتاح، لقطات السيلفي مع المعمارية الهندية شيلا سري بلا كاش، والإيطالي رينزو بيانو «يستحق المتابعة» فكّرت بأسف. كان من المفترض أن تبدأ الجلسات العلمية وورشات العمل عقب جلسة الافتتاح الرسمية، لكنها غادرت أثناء الاستراحة. بدأت ترسل بالصور إلى أمها وأختها. ومجموعة صديقاتها على الواتس آب، ثم تركت التليفون جانبًا، وقامت تراقب جمال وتساعده في اختيار ما يرتديه.

fb/mashro3pdf

18

لـم يكفـا عـن التجـوال طـوال اليوميـن الباقيـن لهمـا فـي روما. لاحظـت خديجـة أن جمال لم يُبدِ انبهارًا بالمزارات الشـهيرة. سـألته أمام الكوليسيوم:

- ألا تريد أن ألتقط لك صورة؟

هز رأسـه موافقًا، دون حماس. أطلعته على الصورة بعد التقاطها، أخذ يتأمل القوس العملاق في خلفيته، وقال:

- الصور الترويجية ابتذلته.

وعـاد يراقب المتزاحميـن على الأرض، والذين يـدورون داخل الصرح ويبدون من نوافذ طوابقه. الكاميرات والتليفونات مُشـهرة في الأيدي. فكَّر «كل تسـديدة عدسـة إلى أثرٍ تنزع طبقة من سحره». انتبه إلى القياصـرة والمحاربين المزيفين، الذين يعرضون على السـائحين التقاط الصور معهم، وأحس نحوهم بالإشفاق. أشار إليهم:

- مثل ساسة الدواب في الهرم.

fb/mashro3pdf

أخذت خديجة تتفحصهم، وردت متشككة:

– You think so?

ـ الأُبهة الهزلية لملابسهم لا تُخفي بؤسهم.

ـ Come on يكسبون أفضل، ولا يلحون.

ورغم فتور حماسته لأيقونات روما السياحية، إلا أن علاقته بالمدينة تعمقت بسرعه. يتأمل أناقة الموائد الممدودة خارج المطاعم والبارات، في صف مسور بالسورد لا يعيق حركة المشاة بالشارع، يراقب حيوية الوجوه، ويفكر بنشوة لا تخلو من الأسى «هذه حياة». آخذ يتصيد الأبواب الخشبية الشاهقة في العمارات القديمة، يصوب كاميرا تليفونه عليها، مُركزًا على زخارفها والمطارق البرونزية المتقنة على شكل قبضات الأيدي، ورؤوس الحيوانات، وآلهة الأولمب.

في صباح يوم السفر إلى كابري، بينما يتناولان إفطارهما في مطعم الفندق. همس لخديجة:

ـ لا أريد أن أغادر روما، كأنني كنت هنا من قبل.

ـ لا تقل شيئًا، قبل أن ترى الجزيرة.

ـ لا أظن أن هناك مكانًا أجمل من روما.

ابتسمت وربتت يده، وهمست:

ـ سترى.

fb/mashro3pdf

عندما جلسا في مقعديهما بالقطار المتجه إلى نابولي احتضنت خديه براحتيها ونظرت في عينيه. استرخى على كتفها، بينما ألقى بنظرته إلى المروج الممتدة.

بين وقت وآخر يظهر قطيع أغنام أو أبقار وخيول ويختفي كالبرق، بينما تسطع الشمس في سماء زرقاء صافية. استغرقه المشهد، وهتف:

ـ هذه الهضاب الراكضة بعشبها وأشجارها وحيواناتها لم تصطف بهذه الطريقة إلا لإسعاد ركاب القطارات.

قبّلته على رقبته، وفتحت المنضدة أمامهما. اعتدل في جلسته. أخرجت من حقيبتها كتابًا بالإنجليزية، ولوّحت به.

صاح:

ـ كالفينو؟! أحببت له «مدن لا مرئية».

ـ وهذه القصص فاتنة.

فتحت الكتاب، وأخذت تستعرض الفهرس. اختارت قصة «الرجل الذي هتف تيريزا».

عندما أنهت القراءة كانت دمعة تلمع كبلورة على خده، مالت عليه ولعقتها، وأخذت تُقبّله مكانها.

ـ إلى هذا الحد أعجبتك القصة؟

fb/mashro3pdf

ـ لا أعرف، القصة، أم بهجة الخضرة، أم الخوف من انتهاء الرحلة، ربما كل هذا معًا.

عاد إلى تأمل المروج الراكضة عبر النافذة، دون أن يتمكن من كبح بلل عينيه «لعله الحسد!» أخذ يستعيد التفاصيل؛ رجل يقف أمام عمارة يهتف باسم امرأة، يتجمع حوله المارة، يتعاطفون، ويهتفون معه، وعندما يسألونه، يصارحهم بأنه لا يعرف امرأة اسمها تيريزا، وعندما ينصرف الرجل ويتفرق الجمع، يظل يسمع صوتًا ينادي تيريزا «إلى هذا الحد يستطيع الإلحاح على عمل أو فكرة أن يجعله مقبولًا، بصرف النظر عن منطقيته؟!» وتذكّر ولعه بالكتابة «كان بوسعي أن أتمسك بهذا الولع وأن أجعله حقيقة». اصطبغ وجهه بالأسى؛ فقبلته مجددًا. أحس بالحرج من حزنه، فأراد التغلب عليه بمعابثتها:

ـ لمن قرأتِ في قطار من قبل؟

لكزته بكوعها في جنبه، وأشاحت بوجهها تنظر إلى الأفق اللانهائي.

عندما هبطا من القطار وجدا سائقًا بانتظارهما. حمل الحقيبتين بخفة. تبعاه إلى سيارته خارج المحطة. سألته خديجة:

ـ هل سنلحق بالعبّارة؟

ـ أمامنا نصف ساعة، لا تقلقي.

fb/mashro3pdf

بعد دقائق من المناورات البارعة وسط الزحام عبرت السيارة بوابة المرفأ. صفها السائق وترجل يفتح لخديجة الباب. أشار إلى صالة الانتظار كي يستريحا. بعد قليل عاد إليهما ببطاقتي الصعود، بعد أن أودع الحقيبتين بطن العبّارة، ومد يده يصافحهما. سأله جمال:

ـ ألن تركب معنا؟

ـ لا، ستجد في كابري زميلًا آخر.

اختارا الجلوس على السطح ليشاهدا البحر. تحركت العبّارة مبتعدة، وظل جمال محدقًا باتجاه نابولي. همس:

ـ كأنها الإسكندرية.

ـ الإيطاليون بنوا نصف عمارات الإسكندرية.

بدأ المسافرون الآخرون يغادرون مقاعدهم، ويتجولون حول السياج مثاني أو جماعات، يلتقطون الصور من زوايا مختلفة، يصوبون كاميراتهم نحو المدينة التي تتباعد، ونحو أسراب النوارس المحلقة في السماء، وقد أخذت في الاختفاء كلما توغلت العبّارة بعيدًا عن الشاطئ.

اقترب رجل مسن مبتسمًا، وسأل خديجة بالعربية:

ـ عفوًا، أنت سعاد حسني؟

fb/mashro3pdf

نظرت إليه بدهشة، وأجابته:

ـ لا، لا، سعاد ماتت من سنين.

ـ أرجوك، لا تقولي هذا. ماتت؟! ممثلة عظيمة.

دعاه جمال للجلوس، فجلس في المقعد التالي لهما. سأله جمال:

ـ من أين أنت؟

ـ أنا من مواليد نابولي، لكن عمري كله في الإسكندرية.

ـ شكلك مصري تمامًا.

ـ تستطيع أن تقول مصري إيطالي.

ـ ومتى عدت؟

ـ منذ عشر سنوات جئت لأقابل الموت، لكنني لم أعثر عليه، يبدو أنه يبحث عني في مصر!

داعبه جمال ضاحكًا:

ـ قل الصدق، أنت جئت لتختبئ منه هنا.

ضحك الرجل حتى ظهرت لثته الخالية من الضروس، وفجأة تقطَّب جبينه، وانزلق إلى الصمت.

fb/mashro3pdf

لاحت الطيور مجددًا في الأفق. وقفت خديجة، وأشارت إلى جمال فتبعها نحو السياج، بينما تهدر العبّارة مخلفة وراءها خطين من الزبد الأبيض فوق الصفحة الخضراء للبحر. تناولت يده:

ـ اقتربنا، لا تُفوِّت رؤية الجزيرة من هنا.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

19

تشبث جمال بسياج العبّارة، يتأمل المشهد. البيوت المتدرجة فوق الجبل التي كانت غائمة كقوارب بيضاء صغيرة متناثرة بين الأشجار الكثيفة، أخذت تتضح لحظة بعد أخرى، وتبدو شرفاتها وشبابيكها الملونة.

ردد كالحالم:

ـ هذا غير معقول. غير معقول.

أخذت خديجة تتأمله، إذ يخرج تليفونه ويشرع في التصوير.

هتف مجددًا:

ـ معقول؟!

وحدّق في عينيها المشبعتين بالحب، تأمل ملامحها فرآها جميلة، جميلة جدًا، أجمل مما اعتقد حتى هذه اللحظة.

توقفت العبّارة وبدأ المسافرون في نزول السلم.

fb/mashro3pdf

على الرصيف وقف كهل يحمل لافتة «السيدة والسيد البابي» لوّحا له؛ فقطع معبر الجنزير الخشبي المتأرجح مهرولًا، أخذ عنهما الحقيبتين الكبيرتين، هبت نسمة لطيفة من فوق الجبل غطت على رائحة وقود العبّارات في المرفأ؛ فملأ صدريهما متطلعين نحو البيوت.

حافظا على توازنهما وراء الرجل حتى صارا على اليابسة. رفع الحمّال الحقيبتين إلى عربته الصغيرة، وانطلق أمامهما يتلوى كالثعبان، فاتحًا الطريق وسط زحام الخارجين والداخلين على اللسان الحجري الرفيع، حتى صاروا في مدخل المرفأ. كانت في انتظارهما سيارة مكشوفة، يقف بجوارها شاب وسيم، من ذلك النوع الممشوق الذي أوقعت به السينما نساء العالم في إغواء الرجل الإيطالي.

حيّاهما:

- **Buongiorno.**

قالها ممطوطة وأكثر تنغيمًا من buongiorno روما. وعرّف بنفسه:

ـ ماريو.

مد يده مصافحًا، ثم فتح لهما البابين الخلفيين للسيارة، وأشار إلى الحمّال كي يمضي بالحقائب.

استقرا في المقعد الخلفي بالسيارة، ودار ماريو يراجع حُسن إغلاق البابين، ووقف ينتظر السيارات الأخرى أمامه. سألهما:

fb/mashro3pdf

ـ هل ألتقط لكما بعض الصور؟

ناوله جمال تليفونه، واحتضن خديجة. شرع يُصورهما من زوايا مختلفة، ثم أعاد التليفون، وهرول ليجلس إلى عجلة القيادة. جلسا يستعرضان صورهما بخلفية الورد والممر الصاخب بالبشر. بدت لقطات زفاف من فيلم سينمائي.

أخرجت خديجة تليفونها، وألقت بنفسها في حضنه وشرعت تلتقط الصور، بينما أخذ ماريو يتحين الفرصة للانطلاق. انتهز أول ثغرة انفتحت وسط الزحام، واندفع يقود كبهلوان في الطريق الصاعد الملتوي.

همس لهما:

ـ أنتما عروسان؟

ردَّت خديجة:

ـ نعم.

وأومأ له جمال في المرآة مؤمِّنًا على إجابتها بسرور، ثم راح يتأملها في فستانها المُخرَّم الأبيض وقبعتها القش الأنيقة، كأنه يراها للمرة الأولى. فكّر «هي عروس، أما أنا...».

تطلع إليهما ماريو مجددًا في المرآة، وسألهما:

ـ هل تعرفان القول المأثور عن كابري؟

fb/mashro3pdf

ردت عيونهما متسائلة؛ فأجاب:

ـ بجيئها الاثنان؛ فيغادران ثلاثة.

ابتسما، ودسّت خديجة تليفونها في حقيبة يدها. أخذت تُقبّل جمال بارتياح، تخلص منها، موجهًا نظرها إلى تفاصيل البيوت، ثم أشار نحو السماء لينبهها إلى تكوينات الغمام الأبيض الصافي على خلفية من الزرقة المبتهجة. منحه خطر الصعود إحساسًا بالإثارة، بينما تتلوى السيارة على الطريق الحلزوني المنحوت بحافة الجبل. يغيب المرفأ ثم يظهر مجددًا، مرة بعد أخرى حتى استوت السيارة فوق قمة. خفف ماريو السرعة ثم انعطف بمهارة بهلوانية ليوقف سيارته في المكان الضيق الشاغر بمحطة تاكسي مُهيأة لأربع سيارات. أوقف المحرك، والتفت إليهما:

ـ هذا آخر دخول ممكن للسيارة، الفندق على بعد مئتي متر.

أومأت خديجة، وترجلت فتبعها جمال. ودعا ماريو، وانطلقا وسط الزحام، تابعهما مشيرًا إلى المسار الذي يجب أن يتخذاه من الساحة انعطافًا إلى الحارة اليسار. التفتت خديجة وشكرته دون أن تعير وصفته انتباهًا. أمسكت بيد جمال وسارت في الاتجاه المعاكس.

ـ إلى أين؟

ـ لا تخف، أعرف الفندق.

fb/mashro3pdf

توقفا في الشرفة التي تُطل على هاوية البحر، يؤطرها سياج من الحديد المزخرف، تزينه أصص جارونيا تتوهج زهورها بألوانها المختلفة.

مع لون الشفق بدت معالم كابري غائمة قليلًا كصورة مدينة في حلم، بينما يتحرك السياح في الشرفة الجبلية صاخبين بلغات شتى، يتنادون لاتخاذ أوضاع للتصوير. سارت خديجة نحو زاوية من السياج تكشف ثلاثة اتجاهات من الجزيرة.

ـ انظر! كنا هنا تمامًا.

تتبع جمال إشارتها مندهشًا، إذ يكتشف أنهم بالضبط فوق المرفأ.

ـ هنا المرفأ الكبير الذي نزلنا فيه، وهناك في اليمين المرفأ الصغير، وهذه هي كابري، وفي ذلك الاتجاه «أنَا كابري».

أخذت تشرح له جغرافيا الجزيرة، بينما يحاول استيعاب المشهد؛ ليس الجمال فقط، بل النظافة كذلك. انتبه مندهشًا أنه لم يتعرق أو يشعر بدبق الغبار على جلده، لم يستخدم منديلًا واحدًا من مناديلة المبللة بالمطهر، التي صارت جزءًا من حياته منذ سنوات طويلة. همس:

ـ من عرف كيف يخلق كابري، لماذا يخلق الصحراء؟

ـ كانت أفقر من الصحراء، حتى اكتشفها الأثرياء.

fb/mashro3pdf

وتعلقت برقبته. حملها من خاصرتيها، وتلفت حوله متردّدًا في تقبيلها؛ فانطلقت ضحكتها، ثم تملصت من يديه.

ـ نحن في جزيرة الحب يا دُبي العزيز.

قالت ساخرة، فهرب من تعليقها بإشارة إلى الوهج الأخير لقرص الشمس الغارق في البحر، مأخوذا بمشهد الانطفاء التدريجي للنجم.

ـ كيف تستطيع الكلمات وصف هذا الجمال؟!

ـ ماذا تظن؟ هناك أشياء أكثر خيالية من اللغة!

ـ لا أتصور أن ركاب سفينة نوح أحسوا بمثل السعادة التي أحسها الآن، عندما لاحت لهم اليابسة.

خرجت كلماته متدفقة ببهجة عميقة، وطوّق ظهرها بذراعه متخليًا عن تحفظه. مضت أمامه وسحبته من يده، وانسلا من بين الزحام، بعد خطوات معدودة، كانا في قلب الساحة، التي تتوزع على محيطها مقاه تمد طاولاتها أمامها، لا تترك إلا مدقًّا يتدافع فيه المارة قبل أن يتوزعوا على الحارات التي لا تكاد العين تلحظ وجودها.

استبقته، وتبعها محاذرًا الاصطدام مع القادمين في الاتجاه المعاكس. بمجرد أن تجاوزا الساحة أبطأت حتى حاذته لبضع خطوات، ثم عادت للسير أمامه في الحارة التي أخذت تضيق مجددًا، بينما تتراص على جهتيها المطاعم والفنادق النفسيحة ومحال الملابس شديدة الفخامة.

fb/mashro3pdf

هتفت:

ـ وصلنا.

وأشارت إلى لافتة الفندق، لتشد عزمه على صعود المسافة الصغيرة المتبقية.

استقبلهما موظف وموظفة بترحيب حار. طلبا منهما الجلوس، وفي لحظة كان شاب واقفًا أمامهما بمنشفتين مبللتين بالماء الساخن المعطر، وخلفه شابة ضيفتهما عصير الليمون الذي تشتهر به الجزيرة. تولت الموظفة توجيه أسئلة مجاملة إلى خديجة: «كيف كانت الرحلة؟ كيف كان تعامل المندوبين في نابولي والمرفأ» بينما أخذ الموظف في تدقيق بيانات الحجز، وأسماهما بتلقائية «مستر ومسز البابي» وتمنى لهما شهر عسل طيبًا.

همس جمال في أذن خديجة:

ـ كأنها المجاملة المعممة في الجزيرة؟

أعاد لهما الموظف جوازي السفر، ونهضت الموظفة لتصاحبهما إلى الغرفة. مضت أمامهما. استدعت المصعد. دعتهما للدخول، ودخلت وراءهما. وقفت مواجهة لهما بابتسامة فاترة، وكان واضحًا أنها تبذل مجهودًا للجم عينيها عن تفحصهما. وصل المصعد سريعًا إلى الطابق الثالث والأخير، قادتهما عبر ممر باذخ الأناقة، وتوقفت أمام الغرفة. دخلت أمامهما، وشرعت تُعرِّفهما بالأثاث الفخم

fb/mashro3pdf

والمزهريات واللوحات، وصور المشاهير الذين حلوا بالغرفة، ثم أشارت إلى كتاب تحتل غلافه صورة جاكلين كينيدي:

ـ هذا الكتاب يوثق بالصور زيارات أهم الشخصيات لكابري، والعديد منهم أقاموا عندنا.

وتوجهت إلى باب الشرفة لتطلعهما على الإطلالة، فعاجلتها خديجة:

ـ هذا كافٍ، شكرًا.

تركت لهما بطاقة الباب، وانسحبت بانحناءة صارمة.

ـ مرحبًا بكما مجددًا.

أغلقت خديجة الباب وراءها، وعادت متجهمة، تُكلم نفسها:

ـ أقاموا عندنا، ههه. تُردد كالببغاء ما قالوه لها، إنها لم تكن هنا في العام الماضي!

حاول إمساك يدها؛ فتحاشته بجهامة. أدرك أنها لم تغفل عن نظرته إلى الموظفة. حاول الإمساك بها؛ فأفلتت منه مجددًا، وانطلقت إلى الحمَّام. وقف في منتصف الغرفة الفسيحة يستعيد الموظفة، محاولًا فهم سر جاذبيتها المُحيّرة. هي ليست متفجرة الأنوثة؛ بل تتمتع أعضاؤها بالتناسق القوي لأجساد الذكور في تماثيل عصر النهضة. ساقان ملفوفتان، مؤخرة صلبة، حوض رحب، خصر مدملج، ونهدان يملأ الواحد منهما راحة اليد، تخز حلمتاهما الوقحتان طبقتي

fb/mashro3pdf

الملابس، وفوق كل هذا وجه يتمتع بصحة ووسامة مزدوجة الجنس، مدججة بآلات الحرب: النظارة الطبية الحادة ذات الإطار الأسود، والتايور الرمادي الفاتح الذي تبرز منه بلوزة بيضاء مقفلة الطوق بحشمة، يبددها الفحيح الحسيّ الذي ينبعث من صوتها الذكوري بعفوية وعدم اكتراث مذل لرجل ناضج.

لم ينتبه إليها عندما جلس في مواجهتها بالاستقبال، إلا بعد أن تكلمت، وعندما وقف في مواجهتها بالمصعد، كان نهداها يكادان يحفان بصدره؛ فأصابه توتر لذيذ، وتمنى لو استمر الصعود إلى الأبد.

عادت خديجة من الحمّام، وأخذت تحدّق فيه بجمود. أحس بنفسه مكشوفًا أمامها «أذكى مما يجب!» هتف لنفسه، وتذكر قضية خُلع غريبة ترافع فيها منذ سنوات. بعد مرافعته بالأسانيد القوية التي أمدته بها الزوجة، لم يدع الزوج لمحاميه فرصة الرد على جمال، وخاطب المنصة بنفسه: «سيدي القاضي، بصرف النظر عما حاول محامي الخصم إلصاقه بي، أوافق على طلاق هذه السيدة؛ لأنها أذكى من أن تكون زوجة».

وصلت الحقائب. وضعت خديجة بقشيشًا في يد الحمّال وصرفته، ثم فتحت حقيبتها وشرعت في إفراغ محتوياتها وترتيبها بالخزانة. عندما انحنت فوق الحقيبة باغتها جمال وفرد أصابع يمناه على ظهرها؛ فراغت مبتعدة. أراد تذكيرها بالمرة الأولى التي أمسكها

fb/mashro3pdf

فيها بهذه الطريقة مبديًا إعجابه بنحول خصرها، اللحظة ذاتها التي صارت تكرهها، فبعد أن راقبت نظراته للنساء الممتلئات تيقنت من أنه يتمنى لو تمتعت بعدة كيلو جرامات إضافية، وكلما طوق ظهرها بيد مكررًا إعجابه بنحافة خصرها، تعرف أنه يعاود القياس بأمل ألا تصل أنامله إلى الجنبين.

أخذت تتحرك عابسة بين الحقيبة الضخمة والخزانة، اعترض طريقها؛ فأشاحت عنه مجددًا. مضى وفتح باب الشرفة، وقف على العتبة يتأمل جدرانها المكسوة بسيراميك تقليدي تتداخل ألوانه المبتهجة، وأناقة مقعدي البامبو والطاولة بينهما، والورد والشجيرات التي تزين حوضين أنيقين يمتدان لصق الجدارين يمينًا وشمالًا. تقدم حتى وقف أمام السياج. كانت البرودة قد اشتدت، وبدأت العتمة تنتشر؛ فبدت البيوت مكعبات رمادية بين الأشجار السوداء، في انحدار ينتهي نحو سهل تتبدد عنده الرؤية، خمّن أنه البحر.

أحس بخديجة وراءه، استدار وأخذ يتطلع إليها، محاولًا إسباغ صورة المرأة الناضجة عليها. استنشق الهواء البارد المشبع برائحة اليود، واحتوى خديجة بين ذراعيه؛ فسكنت في حضنه.

fb/mashro3pdf

20

جلسا صامتين على الفوتيه، صوّبت خديجة الريموت نحو التلفزيون، استعرضت قائمة القنوات، توقفت عند قناة موسيقية، بينما أخذ جمال يتذوق الفواكه المجففة التي ملأت طبقًا أنيقًا على الطاولة.

رنَّ تليفونها، التقطته، ورفعت إبهامها أمام فمها، تطلب منه الحفاظ على صمته. كانت عزة على الطرف الآخر.

ـ أهلًا زوزو، كنت أفكر فيك حالًا، ما الأخبار؟

وأخذت تستمع، ثم ظهر الاضطراب على وجهها، بينما تجيب:

ـ ممتاز، ممتاز، تعرفت على العديد من الشخصيات.

ـ ربما أمدد بضعة أيام، هناك مجموعة تريد السفر إلى كابري بعد الختام، وأفكر في مصاحبتهم.

ـ نعم؟ مامي، هاتيها أكلمها.

قامت، ومضت بالتليفون إلى الشرفة، وأغلقت وراءها الباب. عندما عادت كانت مجهدة، وذابلة. سألته:

fb/mashro3pdf

ـ متى تريد أن نخرج للعشاء.

ـ كما تحبين.

ـ التاسعة مناسب؟

ـ ممتاز.

نظر في ساعته، وتحسس ذقنه، وقال:

ـ أريد أن أحلق.

نهض، ومضى إلى الحمام، متنفسًا بعمق.

عند مرورهما من البهو، تحاشى جمال النظر نحو طاولة الاستقبال، بينما حيّت خديجة بصوت عال، وبلهجة إيطالية متقنة:

– **Buonasera**.

رد الموظفان تحيتها، فاقتربت منهما تطلب ترشيح مطعم، وأكمل جمال طريقه إلى الباب. قال الرجل:

ـ ذيل القط.

ـ كنت أفكر به.

ـ تفضلي لحظة، لأتأكد من وجود طاولة لديهم.

جلست، وأشارت إلى جمال الذي وقف بالخارج وراء البوابة الزجاجية. عندما لحقت به أخذت تمتدح له موظف الاستقبال:

fb/mashro3pdf

- He is so sweet.

لم يعلق. رفعت ذراعها مطوية؛ فشبكها بذراعه، صامتًا.

- يعمل في البرازيل بالشتاء، في فندق من السلسلة ذاتها.

تخلص من ذراعها. استبقها بخطوة واستدار قاطعًا عليها الطريق. حملها بين ذراعه، واستأنفا السير هابطين المنحدر في حذر. بعد أن استوى الطريق قادته للانعطاف إلى حارة ثانية لم ينتبه إلى وجودها عند وصولهما. قال:

- تشبه حارات خان الخليلي، إذا استحمت!

كان المطعم قريبًا جدًّا. بيت متواضع المدخل، على كتف الباب بلاطة سيراميك بالأزرق المتوسطي، عليها الرقم واسم المطعم وشعاره بخط اليد. هبطا أربع درجات. سارا واحدًا وراء الآخر محاذرين لمس الرواد الجالسين حول طاولات تبدأ من خلف الباب مباشرة وتنتشر في كل مكان. أعجبته فكرة استخدام فضاءات البيت على حالها، وأدهشته غرفة النوم، تضم طاولة بمقعدين، وأخرى بمقعد واحد من جهة، ومن الجهة الأخرى يقوم حرف السرير النحاسي بعمل المقعد الثاني. هتف:

- السرير المائدة!

- انتظر لترى بقية المطعم.

fb/mashro3pdf

مضت به في ممر يُفضي إلى حديقة خلفية، مقسمة إلى أحواض مرتفعة، بينها ممرات متعرجة في مستوى أدنى تتوزع عليها طاولات صغيرة تسمح كل منها بجلوس شخصين فحسب. أعجبته عتمة الحديقة التي يرى فيها الرفيق وجه رفيقه بالكاد تحت ضوء الشمعة على الطاولة.

ـ ماذا تُفضل؟

ـ السرير.

ـ لا فائدة، دُب!

وتقدمته عائدة إلى غرفة النوم. جلس على السرير وترك لها الكرسي. جرّب الاستلقاء. جاءت نادلة نحيفة طويلة بشعر مهوش أزرق. اعتدل جالسًا.

قالت النادلة بمرح:

ـ عفوًا، هل دخلت في وقت غير مناسب؟

ثم تأملت خديجة للحظة؛ فتذكرتها. رحّبت بها بحماس، وسألتها عن جمال بإشارة من يدها؛ أجابتها:

ـ خطيبي.

رمقته النادلة بنظرة فاحصة، وأعطته يدًا على استقامتها في حركة بهلوانية.

fb/mashro3pdf

وتركت لهما قائمتي الطعام، ومضت.

بعد دقائق جاءت نادلة نحيفة تشبه السابقة، لكنها حليقة الشعر تمامًا تحمل كأسي شمبانيا.

ـ تحية عروسنا الجميلة.

أخذ جمال يتأملها، ونظر إلى خديجة:

ـ انظري الشبه مع الأخرى!

ـ هي نفسها يا حبيبي، خلعت الباروكة، هذا ما هنالك!

أمرت خديجة بسلطة خضراء وبروسكيتا، كمقبلات، وطلبت الكوسة باللحم لنفسها طبقًا رئيسيًّا، ولجمال سلمون مع بطاطس مشوية. ونبيذ أحمر لها وأبيض لجمال.

أحس نفسه متألقًا، كما لو كانت هذه غرفتهما. فكّر «أريد أن أُجرّب السُّكْر». وأمر بزجاجة نبيذ. تذكر اليوم الأول الذي عرف فيه الشرب. كانت أول موكلة تدعوه إلى بيتها، تاجرة فاكهة، امرأة فارعة الطول، ترتدي جلبابًا بلديًّا. عندما ذهب في الموعد، على العنوان الذي وصفته له بدقة في روض الفرج، فتحت له في ثوب منزلي على اللحم، كانت خارجة لتوها من تحت الدوش، يلتصق الثوب المبلل بثدييها، بينما لم يزل الماء يقطُر من شعرها. أدخلته إلى غرفة معيشة بها ثلاث كنبات بلدية مدعوكة الفرش، وتلفزيون وثلاجة. غابت قليلًا، ثم عادت إليه بعد أن صففت شعرها:

fb/mashro3pdf

ـ يقولون إنك محام شاطر.

أخرجت من الثلاجة زجاجتي بيرة وأطباقًا من الجبن وشرائح الخيار والجزر. أتت على زجاجتها في دقائق، وأخرجت ثانية، بينما تحث جمال على الشرب. لم يعرف إذا كان قد أثبت شطارته في تلك الليلة أم لا، لكنه أحب الشراب، واعتبره مكافأة بدأ يقدمها لنفسه على فترات متباعدة، دون أن يخترق الحدود.

مع الوقت أخذ صوت الضجة يتصاعد بالمطعم، بين وقت وآخر يطل رواد يعاينون الغرفة وينصرفون، حتى دخل أربعيني ممشوق، بوجه وسيم تجلله لحية قصيرة. تفقد المكان، وجلس على الطاولة الأخرى. لم يطلب طعامًا، أخذ يشرب النبيذ، وبإيقاع منتظم تأتيه النادلة بكأس جديدة في اللحظة التي تفرغ فيها السابقة. أخذ يتطلع نحوهما. أشار جمال بطرف عينه لخديجة كي ينبهها إلى المراقب الدءوب. قالت:

ـ لعله يُخمن نوع اللغة التي نتحدثها.

لكن الرجل واصل التحديق نحوهما بشكل استفز جمال:

ـ وقح، لا يرفع نظره عنك.

ردت بدلال:

ـ لا تلتفت إليه.

fb/mashro3pdf

ازداد حنقًا:

ـ يسعدك هذا، أليس كذلك؟

همست:

ـ اخفض صوتك، أنت سكرت؟

صارت نظرات الرجل وخزًا، وبدأ جمال يزفر في نفاد صبر:

ـ وقح بزيادة.

–He is so cute.

رد جمال هازئًا:

ـ لماذا لا ينضم إلينا؟

وأرادت أن تتمادى:

- لِمَ لا!

ـ من جهتي لا أمانع.

وحاول أن يُثبت لها استعداده عمليًا، توجه إلى الرجل محييًا، ودعاه إلى طاولتهما. قبل الرجل الدعوة بامتنان، وانتقل بكرسيه وكأسه. وبدأ بتعريف نفسه:

ـ أوفيديو، شاعر.

صافحته خديجة بحماس، وصاحت:

fb/mashro3pdf

ـ واو، لديك دواوين؟

ـ دواوين؟ أين ناشر الشعر اليوم؟

ـ تنشر في الصحف؟

ـ قصائدي على شفاه النساء في كل الدنيا.

أراد جمال أن ينهي هذه المحادثة، رفع كأسه وهتف:

ـ في صحتك!

لمس الرجل فتور فضولهما؛ فاستأنف موضحًا:

ـ أعمل مع شركات الماكياج العالمية، معظم أسماء الروج من تأليفي.

سأله جمال هازئًا:

ـ أصابع الروج فقط! وأحمر الخدود؟

أجابه الرجل بوقار:

ـ سيدي، من الصعب أن تحمل بطيختين في يدك.

رفع جمال حاجبيه دهشة، وحمل كأسه هاتفًا:

ـ في صحتك.

عادت النادلة بكأس جديدة، وتوجهت إلى طاولة أوفيديو. تظاهرت بدهشتها من غيابه، وانحنت تنظر تحت الطاولة، ثم اتجهت

fb/mashro3pdf

نحوهـم، ووضعـت الكأس أمـام أوفيديو. بعد لحظـات صمت بادره جمال:

ـ مهنتك لطيفة.

ـ لها متاعبها ككل المهن.

ورفع كأسه، وقرع مع خديجة وجمال، هاتفًا:

ـ في صحة إلهام الليلة.

فتحت خديجة عينيها بدهشة. وهتفت:

ـ حقيقي؟!

رفع أوفيديو كأسه مجددًا، وأجابها:

ـ نعم «شغف الأميرة الصغيرة» سيكون اسم الروج الجديد.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

21

للإفطار في الشرفة الفسيحة بمطعم الفندق غبطة التحليق في الحلم. النظافة البالغة في الهواء مدهشة، لا ذباب، رغم الحدائق والغابات حول الفندق وأحواض الورد التي تحدد سياج الشرفة، المفارش والحشيات الفاخرة على طاولات ومقاعد بامبو ناصعة. أدوات المائدة غاية في الأناقة والبذخ، ونُدل بالغو الجمال والوسامة، يلبون بترحاب وابتسامات عريضة أية إشارة.

على مدى الأفق تبدو أسطح البيوت والفنادق نظيفة، مثل قمم سفن تسبح وسط خضرة الأشجار المتصاعدة حتى قمة الجبل تلامس السماء ثم تعود لتنحدر صوب البحر؛ فتنطبق زرقتها على خُضرة الماء.

لا أحد من النزلاء على استعداد للتضحية بجو صحو في أفق كهذا والبقاء داخل المطعم، الذي تحتل منصتا العرض معظم مساحته، بما تحمل من مخبوزات معدة توًّا وسلطات الفاكهة وأنواع الجبن الإيطالي الفاخر، والعسل، والمكسرات، واللبن.

fb/mashro3pdf

كل هـذه الأناقـة تنقصهـا القهوة التركيـة التي يُمثّـل إعدادها على موقد الكحول جزءًا من متعة جمال الصباحية. طلبت خديجة لنفسـها الشاي الأخضر، وسألته:

ـ وأنت؟

أجاب ضاحكًا:

ـ الدواء البديل طبعًا، دُبل اسبريسو.

كانا قد تخيرا طاولة بالصف المطل على الحارة مباشـرة مستقبلين الأفق، سمعا وراءهما أصواتًا عربية تقترب، استدارا في ذات اللحظة، كانت سيدة وزوجها مع صبي في العاشـرة، تقدمت الأسـرة واحتلت الطاولة المجاورة. المرأة ترتدي فستانًا صيفيًّا أنيقًا من قطن أبيض، في وسطه وردة عبّاد الشمس، والرجل والصبي يرتديان ملابس رياضية.

ـ خليجيون.

همست خديجة.

ـ كيف عرفت؟

ـ اللهجة، استمع؟

لـم يكف الطفـل الربعة الذي تتطابـق ملامحه مع ملامـح أبيه عن الكلام.

ـ أمي، أمي، لماذا أسميتموني إبراهيم؟

fb/mashro3pdf

ـ إبراهيم اسم جميل.

ـ كنت أريد اسم النبي الآخر، ذلك الذي يُكلم الطير.

ـ أبي؟ كيف أستطيع أن أفهم الطير؟

ـ أبي، ماذا تفعل لو ألقيت بتليفونك إلى الشارع؟

لم تتمالك خديجة نفسها من الضحك، والتفتت إليهم:

ـ ربنا يحرسه.

ردت السيدة:

ـ تسلمين حبيبتي.

واستأنفت ملاحقة أسئلة ابنها، بينما جلس الزوج صامتًا ينظر إلى البعيد.

همست خديجة في أذن جمال:

He is so smart, I want a baby with you.

أحس جمال بالمباغتة، واضطربت روحه بمشاعر متناقضة. «هذا هو الحب!» للمرة الأولى يتلقى هذا الطلب من امرأة، لكن فات الوقت، وهو لم يفكر بالأطفال من قبل. تعايش مع فكرة أن إخوته هم أطفاله. مؤخرًا فقط بدأ يفكر بمستقبله عندما يُمسي وحيدًا، لكن خاطر الزواج الذي يعبر تفكيره سريعًا مثل نسمة صيف، بين وقت وآخر، تظهر فيه أرملة أو مطلقة في مثل سنه، يتزوجها بلا مراسم،

fb/mashro3pdf

يأتنس أحدهما بالآخر، ويتذوقان الرحيق الآخير، قبل أن يتفرغا لتبادل تدليك جسديهما بالمراهم في الشيخوخة.

احتضن كفيها بين كفيه، وأراد أن يُقبلها في تلك اللحظة، لكن شجاعته تبددت بحضور الأسرة العربية. رأت خديجة مجددًا خجله، وأحبته هذه المرة؛ لأنه منحه مظهر طفل، بادرت ووقفت، طوقته من الخلف وجذبت رأسه نحوها وقبلته على جبينه. عادت لتجلس إلى جواره. بادرها:

ـ هذه الجزيرة هي أجمل نص في التاريخ.

وشرع يتأمل ما حوله يفكر كيف ساهم كل صاحب بيت، كل صاحب مطعم أو محل، في كتابة جملته الخاصة في هذا النص العبقري الذي يُسمى «كابري». عاد يحادث خديجة:

ـ عامل بناء مثل ذلك الذي يعمل الآن في ترميم السور الحجري للبيت المقابل، أترينه؟ هو واحد من هؤلاء الذين يساهمون في خلق كابري.

أجابته باسمة:

ـ الاستمتاع بهذا الجمال شرطه الوحيد ألا تفكر.

أحست من جملتها كأنها تفرض وصايتها على مشاعره، فاستأنفت:

fb/mashro3pdf

ـ أحب بساطتها أكثر من فخامة فينيسيا.

أخذ يستمع إلى مرافعتها المعمارية عن جمال كابري، في مقابل جمال فينيسيا الباذخ، ثم علّق:

ـ مع ذلك أتمنى أن أزورها معك.

ـ سنفعل، لكنك لن تحب البقاء فيها أكثر من يومين أو ثلاثة.

ـ تعتقدين هذا؟!

ـ المتاهة المائية الآسنة سرعان ما تفقد قدرتها على إدهاش زائر المدينة، بل تصبح خانقة ومقيدة للحركة.

أرسل بصره إلى البعيد، متمليًا المشهد، وهتف:

ـ هيا بنا؟

لم يكن هناك الكثير من الزحام في الحارة، سارا متخاصرين حتى وصلا إلى ساحة أومبرتو الأول، فوجدا نفسيهما وسط حشد من البشر. تقدمها وشق الطريق أمامها إلى الشرفة. بدأت ملامح المكان تتكشف له، لم يدرك بالأمس أن الشرفة والساحة تكادان تكونان شيئًا واحدًا، لا يفصلهما إلا لسان الكنيسة الممدود ليصنع مضيقًا بينهما، حتى محطة التاكسي وجدها على بعد خطوات. بصعوبة وصلا إلى سياج الشرفة تحت شمس لطيفة تدغدغ الجلد، نظرا إلى المرفأ الصاخب بالعبّارات، وعلى الجهة الأخرى كانت مراكب النزهة الصغيرة تتأرجح فوق الماء.

fb/mashro3pdf

ـ هل تحب نزهة بحرية؟

ـ أحب كل شيء معك.

ـ إذن، تعال.

وأخذته من يده إلى الكابينة الزجاجية على الجهة الأخرى من الشرفة.

ـ هنا محطة الفينوكيولر.

ركبا القطار الصغير الذي انزلق من القمة إلى السفح في لحظات، وعندما غادرا محطة السفح وجدا نفسيهما في المرفأ. هتف جمال:

ـ ياه، بهذه السهولة؟!

ـ نعم، لكنني فضلت التاكسي لحظة وصولنا من أجلك؛ لأن جولته جميلة.

سارا نحو المراكب الصغيرة. تخيرا مراكبيًا يقترب من السبعين بقامة ربعة شديدة الحيوية وشعر أبيض كالقطن ووجه أشقر لوحته الشمس، ذكّر جمال بسنتياجو بحار همنجواي في «العجوز والبحر». خلال ساعة أبحر بهما العجوز المرح مارًّا بالصخور والكهوف التي يدور حولها منذ عشرات السنين، وبين الحين والحين يترك دفة المركب للحظات، ويلتقط لهما الصور.

fb/mashro3pdf

عـاد إلى البر متعبين جائعين، اسـتقلا الفينوكيولـر صاعدين. وفي السـاحة قابـلا الإسـكندراني النابوليتاني، اقترب منهما، ودون سـلام رفع سبابته في وجه خديجة.

- ألسـتِ سـعاد حسـني؟ قولـي الحقيقـة، لسـت متطفلًا ولـن أزعجكما.

ابتسما ولوحا له، وسرعان ما غمره الزحام.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

22

أخذ يتطلع إلى ملابسهما المكومة على الأرض، ببجامته الرمادية هامدة تحت قميصها الناري، الذي يبدو مثل شريط زينة جديد فوق طرد أصابه الاهتراء من كثرة الأيدي التي تداولته. في الضوء الشحيح بالغرفة كان بوسعه أن يتبين البشرة الغضة الوردية لخديجة التي تركت ذراعها فوقه ونامت، شرع يقارن الجلد المشدود المصقول للذراع الدقيقة مع جلد صدره الأسمر الرخو بمسامه الواسعة. تحركت شفتاها الدقيقتان في غمزات متتابعة كأنها تحاول أن تتكلم، لكن جفنيها ظلا مسدلين.

أحس برغبة في التبول، همّ بالتسلل من السرير لكنه تراجع، وظل ساكنًا، محافظًا على وضعية استلقائه، حتى لا يُقلقها. انهمك في آلية العد، كي يستدرج النوم مسلطًا نظره على نقطة ثابتة بالسقف، حتى أحس بالإنهاك فغفا، وسرعان ما أيقظه شخيره. لا يعرف متى بدأت مشكلة الشخير لديه، لكنه يتذكر أنه لم يكن يُشخِّر عندما كان شابًا، وصار متيقنًا أن الشخير، وتكرار دخول الحمام في الليل من علامات الشيخوخة.

fb/mashro3pdf

شددت خديجة ذراعها عليه، والتصقت به؛ فأحست بقلقه. التفتت إليه، وهمست:

ـ فيمَ تفكر؟

ـ في شخيري الذي يقلقك.

ـ الذي أقلقني هو توقفك عن الشخير.

أضاءت الأباجورة بجوارها، وزحفت نحو رأس السرير. حشت وراءها الوسائد مضطجعة. فعل مثلها، ثم دس يده خلفها وجذبها نحوه. أمسكت بخديه الممتلئين، فطوقها بذراعيه. أحست الاعتذار في دفء احتضانه. جذبته من مقدمة أنفه مشاكسة، ومدت يدها إلى الكوميدينو، التقطت العلبة الصغيرة التي تحتفظ فيها بسدادتي الأذنين:

ـ لا تقلق، لكل شيء حل.

حشت السدادتين في أذنيها. قبّلت جبهته وانزلقت إلى جواره مولية ظهرها له، وبعد لحظات عاد تنفسها الرتيب الخافت.

في الصباح رن تليفونها. التقطته وقامت مهرولة نحو الشرفة، واربت الباب ومرقت إلى الخارج. سمع جمال صوتها بوضوح. تبين من ردودها أن أمها كانت على الطرف الآخر.

بعد الانتهاء من المكالمة، عادت إلى الغرفة، نظرت إلى عينيه المسبلتين وتنفسه المنتظم فتصورت أنه لم يزل نائمًا. أخذت تتحرك

fb/mashro3pdf

بصخب، فأجبرته على فتح عينيه. رأى من مكانه الأفق، حيث ذؤابات الأشجار وأسطح البيوت وقمة الجبل مجللة بلمسات دفء شمس رحيمة.

كل يوم يستيقظ برغبة في البقاء بالغرفة، قدر الجمال الذي يظهر من الزجاج يقلل فضوله لرؤية تفاصيل أكثر قد تصيب الروح بالتلبك. في الغرفة من الفاكهة الطازجة والمجففه والمكسرات ما يكفي إفطارًا لذيذًا ومغذيًا ليتفرغا لمرافعة صباحية، ثم يعود إلى إغفاءة ما بعد الرضى التي يحبها، لكن قبضة قلبه جعلته راغبًا في الخروج إلى الفضاء.

واصلت خديجة صخبها، ونادته:

ـ دُبي، تحرك. اليوم لدينا رحلة استكشافية في هدوء سيعجبك.

جلست بجواره. فردت خريطة الجزيرة أمامه، ورسمت دائرة على رأس مثلث داخل البحر.

ـ سنذهب إلى واحدة من أجمل فيلتين بالجزيرة، فيلا ليسيس.

أزاحت عنه الغطاء فوضع يديه تلقائيًا يستر ما بين فخذيه. أخذت تُطبّل على صدره، حتى نهض وغادر السرير.

أثناء الإفطار عيّنت له موضع الفيلا على خريطة جوجل إيرث بالموبايل، وأشارت إلى اتجاهها عبر الأفق المفتوح:

fb/mashro3pdf

ـ أخر نقطة في الجزيرة من هذه الناحية.

بعد الإفطار عادا إلى الغرفة، انتعلت حذاءً خفيفًا، ووضعت بعض الفواكه والمكسرات مع زجاجتي ماء في كيس.

ـ سنقضي هناك حتى ما بعد موعد الغداء.

قطعا الحارة صعودًا عكس اتجاه الساحة، ثم بدأت الحارات تتشعب، وكلما ترددت أمام الخيارات توقفت واستعانت بالخريطة الإلكترونية. على مسافات بعيدة تصادفهما في الطريق الهادئ شرفة على جرف، تضم دكة للراحة يفصلها عن الهاوية إفريز حديدي.

عندما أحسا بالتعب جلسا يستريحان، ويتأملان البيوت الأقل بذخًا من السُّرة التجارية للجزيرة. أخرج جمال علبة سجائره، وأشعل واحدة، أحس برائحة التبغ قوية جارحة وسط الهواء النقي، توسد فخذها ناظرًا إلى تشكيلات السحب في السماء. توجهت إليهما عجوز خرجت من البيت المقابل. كانت ترتعش، طلبت من جمال سيجارة فاعتدل وأخرج لها واحدة، أشعلها لها، ثم منحها بقية العلبة. كادت ترقص، لاهجة بالشكر.

همست خديجة:

ـ مسكينة، تبدو مدمنة.

ولم يصارحها بأن إحساسه بالغبطة أعلى من إحساسه بالشفقة تجاه المرأة. كانت اللحظة الأولى التي يرى فيها مظهرًا للضعف منذ وصولهما إلى الجزيرة.

fb/mashro3pdf

عندما اقتربا من الفيلا، صافحهما الهدوء الذي جعل السحالي تزحف مطمئنة تحت أشجار تنتمي إلى مناخات مختلفة، بينما تدوّم جماعات من النحل، كأنها تحرس السر الذي يلف هذه البقعة النائية.

أدارت خديجة سبابتها مشيرة إلى المكان من كل اتجاه.. البحر، والفيلا، والحديقة المتدرجة على الهضاب. هتفت:

ـ ما أجمله من منفى!

أومأ جمال موافقًا، دون أن ينبس.

تقدمته باتجاه الساحة الصغيرة للفيلا التي تفصل البحر عن الدرج المرمري الواسع لمدخلها. وأشارت إلى تمثال لصبي عارٍ يتوسط الساحة متزنًا على ساق واحدة، محنيًا يستخرج بيديه شوكة من ساقه المرفوعة.

ـ انظر كيف ينطق المعدن الصلب بالدلال!

أخذا يدوران حول التمثال من كافة زواياه. باستثناء زقزقة العصافير وصفير صرصار الحقل لم يكن هناك ما يخدش هدوء المكان سوى فوج من الأسكندنافيين يتبادلون التقاط الصور على الدرج؛ فشرعت تحكي له عن صاحب الفيلا فيرسين، رجل الصناعة والشاعر الفرنسي، الذي حوكم بتهمة اغتصاب قاصر؛ ففر ليلتقط صبيًا آخر من روما ويصحبه إلى هذه البقعة النائية.

أخذ جمال يُقلّب وجهه بين الفيلا والتمثال الرقيق، وقال:

fb/mashro3pdf

ـ يوحي بالحزن، أكثر من الدلال.

دققت النظر في التمثال وأومأت موافقة، عاد ليسألها:

ـ إذا كان صاحب الفيلا اسمه فيرسين؛ فمن أين جاء اسمها «ليسيس» هل هو اسم عشيقه؟

ـ ليسيس، هو أحد الشباب في محاورات أفلاطون.

انصرف الآخرون، فتقدمته خديجة لارتقاء الدرج.

ـ انظر!

ونبهته إلى الكلمات اللاتينية المكتوبة بالجص المذهب فوق مدخل الفيلا «معبد للحب والأسى».

في المدخل وجدا موظفة أربعينية رحبت بهما، وبسطت أمامهما خريطة الفيلا، وأخذت تؤشر لهما:

ـ يمكنكما أن تبدآ من هنا، أو من الطابق الثاني، أو من الطابق تحت الأرضي، كما تحبان.

أخذت خديجة تستمع إلى ما تعرفه من قبل مبدية الامتنان، بينما كان جمال يتأمل الموظفة وهمس في أذن خديجة:

ـ هل يبدو ذبولها طبيعيًا في هذه الجنة؟

ـ الاعتياد قاتل، وهي هكذا منسجمة مع حياة صاحب الفيلا الذي انتحر بجرعة كوكايين زائدة.

fb/mashro3pdf

تناولت يده ومضت لارتقاء الدرج الذي يقود إلى طابق المعيشة، مستعيدة سمت مُعلّمة تاريخ الفن.

ـ تحمل الفيلا روح بدايات القرن العشرين، يجمع أسلوبها بين النيو كلاسيك والآرت نيفو.

في صعودهما المتأني درجة بعد أخرى، أخذ جمال يتأمل تفاصيل الفيلا دون أن يُعلّق، بينما تابعت خديجة موضحة:

ـ تأمل استخدام الحديد في الدرابزين، الانحناءات في الزخارف المذهبة من الزهور والشرائط والحروف اللاتينيه، من الآرت نيفو، بينما يغلب النيوكلاسيك على جوهر الفيلا.. الأعمدة الرومانية والأقواس والشرفات.

صارا في طابق المعيشة، وشرعا يتفقدان الغرف. كل شيء بالطابق بسيط يجلله سكون حزين، باستثناء الحمّام الفسيح المشرف على البحر والحديقة، يتوسطه حوض استحمام دائري من المرمر الوردي، مع صنابير من النحاس ومرايا ضخمة. لا تزال تتصاعد منه طاقة حسية، كأنه شهد مطاردات العاشقين بالأمس. تقمص جمال دور المرشد. هنا كان يخلع ملابسه، يعلقها على هذه المشاجب، ثم يخطو هكذا خطوتين، ويتوقف هنا ليتأمل الصبي اللاهي في البركة يتلاعب الماء الصافي بعريه، سيخطو نحوه، يضع قدمًا في الماء يستطلع درجة الحرارة، يخطو بالأخرى وينساب داخل الماء، يستلقي في هذه

fb/mashro3pdf

الجهة، يمد ساقيه يجذب بهما الصبي المستلقي في الجهة الأخرى. ابتسمت خديجة وغمزت معابثة، وجذبته من يده.

هبطا الدرج، مجددًا، أومآ بالتحية للموظفة، وسارا إلى صالة الاستقبال الواسعة التي لا تضم سوى صالون وحيد من كنبتين وكرسيين. جلست خديجة على أحد الكرسيين، وأعطت جمال تليفونها وقالت:

- صورني.

التقط لها عدة صور، ثم جلس إلى جوارها والتقط لهما سيلفي، ثم ناولها تليفونها، وشرع يلتقط أخرى بتليفونه.

عندما خرجا إلى الشرفة الفسيحة التي تجلل الطحالب برامق وسطح سياجها، أخذ جمال يتأمل احتضان البحر للفيلا من ثلاث جهات، أحس بتحرره من الحزن، فالطابق المغمور بالضوء يشبه الكثير من الفلل، باستثناء الإطلالة الفريدة على صخب البحر. استلقى على أرضية الشرفة مغطيًا عينيه بذراعيه، وأخذت خديجة تلتقط له الصور ضاحكة.

نهض بعد لحظات من الراحة، وحملها بين يديه. تعلقت برقبته، بينما يُقبلها بتأنٍّ. عندما تركها قادته من الشرفة إلى صالة استقبال فالممر، حيث الدرج الهابط.

fb/mashro3pdf

أشارت إلى اللافتة بجوار باب صالة كبيرة «غرفة الأفيون». انسابا من الباب إلى الغرفة الخالية من أية قطعة أثاث باستثناء سجادة تغطي دائرة منخفضة في الوسط، وتتناثر فوقها الحشايا.

قالت:

ـ هنا كان يسهر مع أصدقائه.

مضى جمال نحو النافذة متحاشيًا دائرة المرمر بفرشها الشرقي، رأى الماء يضرب حاجز الأمواج الصخري الملتصق الذي يُدعِّم أساس البناء. تطلع إلى البحر مبتهجًا:

ـ غياب العقل في هذا المكان لا يحتاج إلى مخدر!

أشارت خديجة مبتسمة إلى باب صغير:

ـ هذه الغرفة الصغيرة كان يستخدمها كخلوة مع الصبي.

فتحا الباب فصارا في فضاء الغرفة المظلمة، رد جمال الباب خلفهما، وهتف:

ـ اشتهيتك.

أحست في النبر القوي لكلمته برياح خماسين تلف جسدها، وتكاد تُطيرها في الهواء. الإحساس ذاته الذي أحسته عندما رأته في بهو المحكمة للمرة الأولى.

fb/mashro3pdf

احتضنها، فدفعته نحو الجدار مريحة رأسها على صدره، بينما تحس في شعرها دفء أنفاسه الحارة. سمعا وقع أقدام على السلم، قبّلته خطفًا على عنقه، ومضيا صاعدين إلى باب الخروج.

ودّعا المشرفة، وهبطا درج المدخل مغادرين، رأى جمال درجًا آخر هابطًا يصل الساحة بالماء.

قال:

ـ لنجلس هناك قليلًا.

وجذبها صوب البحر. هبطا حتى آخر درجة لا يبللها الموج.. وجلسا مستمتعين بالرذاذ يصافح وجهيهما محملًا برائحة البحر القوية المنعشة. أخرجت خديجة زوادتهما من الفاكهة والمكسرات والماء. وبعد أن أكلا، بدآ رحلة العودة. سارا نحو نصف ساعة وغيّم الجو. قالت خديجة:

ـ يمكننا أن نختصر عبر الغابة.

تطلع جمال إلى الكتلة شبه المعتمة من الأشجار وبدت عليه علامات القلق. هتف:

ـ ماذا لو ضللنا طريقنا؟

ـ لا تخف، أعرف الطريق.

لم يُعقّب وتبعها، عبر المدقات المتعرجة بين الأشجار، يصعدان ويهبطان، ويقفزان من فوق جداول ماء صاخبة.

عندما وصلا إلى الفندق أحس بألم حار يتصاعد من شرجه.

fb/mashro3pdf

23

في صباح اليوم التالي اقترحت خديجة رحلة إلى «أنا كابري» سألها جمال:

ـ ماذا هنالك؟

ـ وجه مختلف للجزيرة ستحبه، وهناك فيلا ساحرة كذلك.

أومأ استحسانًا، من دون أن ينجح في إخفاء فتوره. كان نبض الألم يتتابع أسفل ظهره، معمِّقًا إحساسه بالغربة بعد أن فقدت كابري قدرتها على إدهاشه.

بعد المراقبة الدءوبة للبحر والسماء والجبل والشجر، خلال الأيام الثلاثة التي انقضت، يستطيع أن يترافع عن كابري في جملة واحدة «جميلة إلى الحد الأقصى» هكذا باختصار. فكّر «كم هو بسيط وسطحي جمال الطبيعة» لم تعد هناك مفاجآت في هذا المستوى الأقصى من الجمال، بخلاف النفس البشرية التي تظل تفاجئ بالغريب واللا متوقع، الجميل والقبيح، حتى أقرب الناس بوسعهم أن يهدموا في لحظة الصورة التي استقرت لهم عبر السنين.

fb/mashro3pdf

أخذا يهبطان الحارة، بينما يجتهد لإخفاء توجعه. عندما وصلا إلى الساحة أخذ يتأمل السيَّاح كما لو كان في عرض مسرحي، سيُسدل عليه الستار قريبًا، يتنصت على حوارات بلغات يجهلها، يلتقط كلمة من هنا وكلمة من هناك، ويحاول أن يحدس مهن الآخرين؛ تجار سلاح، مضاربون في البورصة، مدراء بنوك، أصحاب إمبراطوريات اتصالات، ممثلون و ممثلات. يحاول أن يتخيل حياة كل منهم في بلده الأصلي في خلاف أيام البطالة الكابريزية. لاحظ أن أغلبية رواد الجزيرة من المسنين الذين أفنوا أعمارهم في جمع نقود، لم يعد لديهم الوقت لإنفاقها بالمعدلات العادية في مدنهم فجاءوا ليبددوا ما يستطيعون في هذه الجزيرة التي لا يصل إليها متسولون، أو مرضى، أو أصحاب عاهات، أو موظفون حاسدون. فردوس أرضي للوفرة والراحة والمعاملة المهذبة المدفوعة سلفًا، ووفرة من الجمال جاهزة لراحة أرواحهم مما صنعوا من قبح وتركوه خلفهم.

المحامي الذي رأى زيجات كثيرة تتقوض بسبب الحاجة إلى ألف جنيه، أي ثمن سمكة واحدة أكلها في مطعم مدعٍ، لم يشأ أن يُعكر على خديجة انطلاقها أو يُشعرها بالذنب بينما ينبغي أن يكون ممتنًّا. أخفى عنها اضطراب روحه، مثلما يخفي عنها إرهاقه وألم شرجه، وهاجس فارق عمريهما؛ الذي تتجاهله خديجة ويتحسسه كندبة.

في المحطة سألته:

ـ تاكسي أم ميني باص؟

fb/mashro3pdf

أجاب تلقائيًا وبنبرة إصرار:

ـ ميني باص.

وقف في الطابور الطويل لشراء بطاقتين طالبًا منها البقاء خارج الزحام.

عندما حصل على البطاقتين أحس بالسعادة، مثل طفل خاض تجربة الخروج إلى الشارع منفردًا للمرة الأولى. قاد خديجة من يدها، اتخذا مكانهما في الطابور المحصور بين الجدار وحاجز حديدي تتخلله فتحة مقابل باب الصعود إلى عربات تصل وتأخذ حمولتها تباعًا.

انتظرا نحو نصف ساعة، وبدا التوتر على وجه خديجة. اقترحت التحول إلى التاكسي، لكن جمال كان منسجمًا مع الانتظار. أخذ يُنقّل حمل جسده بين ساقيه، ويباعد بين فخذيه مفسحًا للهواء البارد، كي يقلل من سخونة الشرج. قالت:

ـ نسيت أن اليوم سبت.

وأحست بأنه لم يفهم؛ فأوضحت:

ـ السبت والأحد تزدحم كابري بزوار اليوم الواحد الذين يأتون من نابولي والبلدات القريبة.

تلفت جمال حوله يتأمل الآخرين، أدرك اختلاف الوجوه عن تلك التي كان يطالعها بتكرار في الأيام الماضية، حتى بدا يعرف بعضها كما يعرف وجوه سكان عمارته.

fb/mashro3pdf

أحس بالألفة، وبدأ يتبادل إيماءات التحية والمجاملة مع الآخرين أثناء الصعود إلى الميني باص.

لحقا بمقعد واحد، أفسحت له خديجة ليجلس وجلست على ركبتيه فطوقها بذراعه، بينما انطلقت العربة في مسارات إهليلجية متصاعدة. صيحات الركاب الخائفة المرحة عند التقابل مع سيارات معاكسة في المنعطفات الحادة جعلته يشعر أنه في رحلة مدرسية.

وجد في آنا كابري وجهًا آخر كما وعدت خديجة. البيوت أصغر من بيوت كابري وأقل بذخًا، ورأى أطفالًا من السكان يصخبون وحدهم في الساحات بعكس أطفال السيّاح المراقبين جيدًا، والدكاكين والأكشاك تعرض بضائعها في الشارع التجاري، قال:

ـ أجواء الموسكي.

ـ يعني!

ردت خديجة ببطء تعبيرًا عن ترددها في قبول رأيه، واستدركت:

ـ ممكن، مع الأخذ في الاعتبار بعض الفروق: الباعة وعمال النظافة والزبائن والهواء!

اتسعت الحارة الصاخبة أمام بيت قديم نبيذي اللون على الطراز الأندلسي، يقف مميزًا بطوابقه الثلاثة المرتفعة بين البيوت والدكاكين المتواضعة ذات الطابق الواحد والطابقين.

fb/mashro3pdf

اقترحت الدخول:

ـ «البيت الأحمر» شديد الرقة من الداخل.

ـ لن أستطيع

وأشار إلى الطاولات الخالية التي تضعها الجيلاتريا المقابلة في الرحبة الظليلة أمام مدخل البيت الأحمر. قالت:

ـ لا مشكلة، نستريح لنستعد لفيلا سان ميكيلي؛ فهي الأهم.

هيَّأت له كرسيًّا، ومضت لتأخذ مكانها في الطابور الصغير أمام بائعة الجيلاتي. أعجبته البرودة في ملقف الهواء أمام البيت. في نفسه كان يتمنى لو وافقت على الدخول وحدها ليتمكن من التوجع بحرية.

عادت خديجة بعد قليل، مدت له يدها بقمع جيلاتي الليمون الذي أدمنه في كابري. جلسا يلعقان في صمت. بعد أن انتهيا تنهد بارتياح، وسألته عيناها «نمشي؟» قام مستدعيًا كل قواه حتى لا يترك وزنه على ذراعها الرقيقة. قال مداعبًا:

ـ كنت حتى بداية هذا الألم تسحبين أعمى، الآن أصيب ضريرك بالعرج.

بدت علامات الرثاء للذات في صوته، فاستبقته واستدارت ووقفت في مواجهته. احتضنته فاحتواها، ورتبت ظهرها. ثم استأنفا السير عائدين نحو فيلا سان ميكيلي.

fb/mashro3pdf

المدخل الصغير المتقشف للفيلا لا يوحي بجمالها قليل الادعاء. يضم المدخل مطبخًا وغرفتين صغيرتين، وينتهي بفناء مربع تتوزع في زواياه وطيقانه تماثيل للآلهة اليونانية. في جانب من الفناء درج يُفضي إلى الطابق الثاني المقام جهة الشمال على أول مستويات الهضبة يضم ذلك المستوى صالة جلوس وغرفة طعام وغرفة نوم فسيحة تحوي السرير والمكتب وصالونًا. أثاث غرفة الطعام مثل أثاث المطبخ في الأسفل، ينتمي إلى فطرية الأثاث الريفي، بمقابضه الحديدية المقطرنة بعفوية وانسجام مع كتل الخشب القوية، بينما تتميز الصالونات بالرهافة والذوق الرفيع، كأنه أراد أن يجمع كل شيء في معتزله الذي بناه على دفعات ووسع حدائقه على مراحل. ينفتح الطابق على تعريشة من الخشب المتصالب مثقلة بالياسمين والجهنمية يحملها صفان من الأعمدة الرومانية يمضيان في معراج يقود إلى ممر مسقوف أعلى نقطة مشرفة على البحر، حيث توجد شرفات يربض في أحدها تمثال صغير لأبي الهول موليًا وجهه نحو زُرقة الماء اللا متناهية. وبعد هذه الشرفة ينغلق الطريق الصاعد بمحراب من المرمر. قالت خديجة:

ـ صاحب الفيلا طبيب سويدي، بناها بقصد الاسترخاء، ليس فيها استعراضية العاشق التي تبدو في فيلا ليسيس.

رد جمال متسائلًا:

ـ كأن في عمارته شيئًا من عمارة البيت العربي؟

fb/mashro3pdf

ـ ربما، الأفنية الداخلية المفتوحة على السماء تشبه العمارة المملوكية، وكذلك عرائس السور فوق المبنى.

مثلما فعلت مسلة «بياتزا ديل بوبولو» في روما بروح جمال، أسقط عنه تمثال أبي الهول نصف غربته. تطلع من فوق جسد الأسد الوردي الرابض، ثم شرع يتطلع إلى الغابة الصغيرة المتدرجة حول الفيلا. قالت خديجة، محاولة استعادته من صمته:

ـ عرف السويدي المتوحد كيف يترك الطبيعة تعبر عن نفسها.

استوقفت زوجين مسنين ليلتقطا لهما صورة. جعلا التمثال بينهما، والتقط الرجل المسن لهما عدة صور، ثم عرضها أمامهما. هتفا مجاملين:

ـ ممتاز.

تناولت تليفونها من الرجل بعد أن شكرته، وأحست بالرضا لتحسن مزاج جمال. طوقته وبسطت شفتيها:

ـ قبّلني.

احتضنها وأعطاها شفته بفتور؛ فانصرفت عنه وجلست في المحراب المرمري. تبعها، وجلس بجوارها متلذذاً ببرودة الرخام تحته.

قالت بأسى:

fb/mashro3pdf

ـ أنت لا تشعر معي بالإشباع.

أجابها مُشاكسًا:

ـ لأننا لم نفعلها بعد!

ردت بمرح:

ـ سخيف، وليس مضحكًا.

سكت؛ فاستأنفت:

ـ أنت تحب السمينات.

وأخذت تُذكره بنظراته إلى المؤخرة المكتنزة للأمريكية التي كانت على الطاولة المجاورة عندما كانت عائدة من الحمَّام، في مطعم تعريشة الليمون. حاول الإنكار، فلم تقتنع، فقرر أن يُغير إستراتيجيته:

ـ نعم نظرتُ إلى ردفيها، بتفكير وليس برغبة.

ـ عريتها بعينيك، وهي أحست وشرعت تبادلك النظرات.

ـ كنت أُفكِّر بإشفاق في رفيقها.

تركته وأخذت تهبط المنحدر تحت العريشة، تبعها شاعرًا بالأسف، يتأمل تتابع الضوء والظل على فستانها الدانتيل السكري، بينما تبدو العصبية واضحة في خطوها المسرع.

fb/mashro3pdf

24

في الليل تحول شرجه إلى حلقة نار، لكنه ظل قابضًا على الألم بتكتم، لا يظهر إلا عندما تخونه تقلصات وجهه. رفض استدعاء طبيب:

ـ شيء بسيط لا يستحق.

وضعت يدها على جبهته تجس حرارته، وسألته:

ـ متأكد؟

واضطجعت إلى جواره.

ـ ضعي سدادتي الأذنين.

ـ لن أضعهما، قد تحتاج شيئًا.

مد ذراعه تحت رأسها، واحتواها بالأخرى، التصقت به، فأخذت أصابعه تتلمس ظهرها. أحس بتبرعم نهديها تحت قميصها الرقيق، بينما كانت كل قدراته العصبية تتركز في الألم الذي انتشر في كل جسمه، حتى صار انقباض صدره مؤلمًا أكثر من أسفل ظهره؛ فتوقفت

fb/mashro3pdf

يده عن مداعبة ظهرها. تسرب همومه إلى جسدها، وبعد لحظات بدأت أنفاسها تتردد منتظمة. تزحزح مبتعدًا بخفة، وانقلب مستقبلًا السقف، مقرفصًا ساقيه لكي يتهوى أسفل ظهره.

كز على أسنانه «لا أتذكر ألمًا كهذا». بلغ هذه السن دون جراحات أو أمراض، باستثناء نزلات البرد، التي تضعه في بؤرة اهتمام إخوته، ويستعذبها باعتبارها عطلة إجبارية محدودة.

عندما بدأت أنوار النهار تعلن عن نفسها خلف الستائر الداكنة، أخذته غفوة، حلم خلالها بالتصاقه بجسد فتاة شابة، قطع الألم حلمه، واستيقظت خديجة على تقلبه. نظرت إلى وجهه، فأدركت من إنهاكه واحمرار عينيه، أنه لم ينم. قالت:

ـ يبدو أنك تألمت كثيرًا، لماذا لم توقظني؟

لم يرد. وأحست بأنها أمام شخص لا تعرفه. إنسان ضعيف وحساس يستحق المساعدة.

ـ قم، سنذهب إلى طبيب.

في دقائق صارا جاهزين، وضع جوازه مع وثيقة تأمين السفر الصحية. نظرت في ساعتها:

ـ لم يزل الوقت مبكرًا، نمر بالمطعم نأكل شيئًا؟

fb/mashro3pdf

أومأ موافقًا. تخيرت الطاولة الخالية في الصف الأول الذي يحبه بالشرفة، أجلسته، وطلبت له الاسبرسو المزدوج، ولنفسها شاي «إنجليش بريكفاست» ومضت تجلب إفطارًا. تلفت حوله؛ فأحس أنه غريب دخل حفلًا بطريق الخطأ، يتأمل ما يراه بفضول؛ إيماءات التحية الباسمة ذاتها بين الجميع، الطيور التي تحلق في دوائر وتحط على قمم الأشجار، ألوان الورد المبتهج في أحواضه، والنصاعة التي تشمل كل شيء، كلها تبدو عديمة الانسجام مع موجات الألم التي تهجم، ثم تنشب أظافرها في عضلة قلبه، ولا تسكن إلا لتبدأ من جديد.

وضعت النادلة الشاي والقهوة أمامه، أغرق كيس الشاي في الإبريق، وشرع في ارتشاف قهوته. عادت خديجة بطبقين، وجلست بجواره. أخذت تُطعمه في فمه، فلم يرد يدها، رغم أنه لا يجد طعمًا لأي شيء. رجاها أن تأكل، وأخذ يكمل القهوة، مشاغلًا ألمه بتأمل الوجوه؛ من خلال درجات الاسترخاء البادية على الوجوه يحاول أن يكتشف من قضى ليلة حب طيبة، ومن نبر الحديث بين المثاني يحاول اكتشاف الطرف الأقوى في العلاقة، أو الأكثر حبًا. بعد طول تحديق فكر «ميزان الحب يشبه ميزان العدالة، من النادر أن يستقيم».

في البهو توقفت، وسألت الكونسيرج عن مستشفى. أجاب:

fb/mashro3pdf

ـ يوجد مركز صحي، لكنني لا أنصح بالذهاب إليه، يدخل الإنسان عندهم بصداع فيخرج بذراع مبتورة.

ووصف لهما المكان، لكنه نصح بطبيب في الجوار. سألته خديجة:

ـ هل يكون في عيادته الآن؟

أجابها:

ـ عيادته هي بيته، اطرقا الباب جيدًا.

سار جمال متسانداً عليها. شقة الطبيب طابق ثانٍ فوق محال صغيرة، مدخله عبر سلم ممتد في الحارة. طلبت خديجة من جمال الانتظار وهرولت صاعدة، أخذت ترن الجرس وتطرق الباب، حتى خرج بائع من محله وتطلع إليها ليخبرها بأن الطبيب خرج منذ نصف ساعة. لم يجدا بُدًّا من التوجه إلى المركز الصحي، الذي يقع على بعد دقائق مشيًا بعد ساحة أومبرتو الأول.

في الاستقبال لم يطلبوا شيئًا، منحوه رقمًا، وأشاروا لهما إلى غرفة الفحص المختصة. استقبلهما الطبيب ببشاشة، وأجلسهما. استمع إلى شكوى جمال، وأمره بالتوجه إلى خلف الحاجز والكشف عن الموضع، ثم ارتدى قفازيه ومضى وراءه. أمره:

ـ انحنِ.

fb/mashro3pdf

وأخذ يتحسس الشرج، ثم قال:

ـ بسيطة، التهاب من المشي، لكنك تركته حتى تفاقم.

عاد ليجلس خلف مكتبه، بينما أعاد جمال تسوية ملابسه وتبعه. جلس أمامه في مواجهة خديجة. وصف الطبيب مضادًّا حيويًّا موضعيًّا وخافضًا للحرارة، ثم سألهما:

ـ من أين أنتما؟

أجابته خديجة:

ـ من مصر.

صاح الطبيب:

-Egitto !

وأخذ يسأل عن الوقت الأفضل لزيارة الأقصر؛ لأنه يريد ترتيب رحلة لأسرته من أجل ابنته الممسوسة بالفراعنة. أجابه جمال:

ـ من بداية نوفمبر حتى آخر أبريل، يكون الجو ممتازًا.

تدافعت الأسئلة من الطبيب؛ فترك جمال لألمه العنان، كأنما ليُطلع الطبيب على أبعاد حالته التي يتكتمها بقدر استطاعته إشفاقًا على خديجة. وعندما لم يتمكن من جذب اهتمامه، سأله:

ـ هل يوجد موت في كابري؟

fb/mashro3pdf

جلجلت ضحكة الطبيب وأجابه:

ـ لا تخف، هل رأيت أحدًا يموت من مؤخرته؟

اختلطت تقلصات الألم مع الابتسامة، وعاد يسأله ضاحكًا:

ـ لست خائفًا، مجرد سؤال لأني درت حتى التهبت مؤخرتي، دون أن أرى مقابر.

تدخلت خديجة موضحة:

ـ حبيبي، المقابر مررنا بها في الطريق إلى فيلا ليسيس.

عقّب الطبيب جادًّا:

ـ الموت موجود، لكن السيَّاح لا يتوقعونه في كابري.

أجاب جمال مُصرًّا:

ـ لم أرَ موكب دفن، منذ وصلنا إلى هنا.

ـ لأنك لا تريد أن ترى. أنا شخصيًّا، حضرت أمس في كنيسة سانتو ستيفانو قداسًا على ميت صباحًا، وحفل زواج بعد الظهر.

قالت خديجة:

ـ رأينا الزفاف، أمس.

fb/mashro3pdf

قال الطبيب:

ـ ولو أجريت استقصاءً بين السيَّاح الآخرين ستجدينهم كلهم مثلكما؛ رأوا العُرس فقط، وهذا ليس سيئًا أبدًا.

شد على يديهما مودعًا، ناصحًا جمال بالراحة التامة.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

25

خرجت خديجة بمفردها للمرة الأولى، بعد إلحاح من جمال الذي التزم بتعليمات الطبيب.

مرقت من بوابة الفندق هابطة صوب الساحة. غمرتها نسمات صباحية، أطارت شعرها؛ فانتابتها مشاعر متداخلة. أحست بالخفة، كأنها شطر توأم سيامي انفصل للتو متحررًا من نصفه الضعيف، وسرعان ما انكسرت بهجتها تحت شعور بالأسى لجمال الذي تركته وراءها راقدًا ساقيه على الوسائد يتوجع ألمًا. مرت أمام مركز التجميل القريب من الفندق. «لم أعتن بشعري أو أظافري حتى لا أترك جمال وحيدًا، الآن يمكنني أن أفعل».

دفعت الباب الزجاجي ودخلت. كانت كل العاملات مشغولات. حددت لها مديرة المركز موعدًا بعد ساعتين. فكرت في مهمة تنجزها خلال الساعتين. خطر على ذهنها متجر العطور القائم فوق تلة تشرف على دير كارتوشيا بحديقته الفسيحة «يمكنني شراء ما أريد وقضاء بقية الساعتين في هدوء حديقة الدير».

fb/mashro3pdf

مضت في طريقها، سعيدة بالفكرة، أخذت تدور مع التفافات الحارات المنحدرة التي تعرفها جيدًا، استوقفتها رائحة الكريب لدى حلواني صغير يصطف أمامه طابور طويل، وقفت في الطابور، لكنها طلبت قمع آيس كريم عندما وصلت إلى الخزينة.

فور تخطيها عتبة متجر العطور، تطلعت إليها البائعات الشابات بترحاب، وبادرتها السيدة الستينية باولا بالتحية، من خلف شاشة ماكينة الدفع:

ـ **مرحبًا، كيف حال ماما؟**

أجابتها خديجة مندهشة:

ـ **تتذكرينني؟!**

هزت السيدة رأسها بحماس، وأومأ رجل يقف بجوارها لخديجة، بابتسامة عريضة أبرزت غمازتين مثيرتين في خديه، وسألها:

ـ **أنت عربية؟**

أجابته مبتسمة:

ـ **إسبانية.**

رد بتصميم:

ـ **بل عربية.**

قالت ضاحكة:

fb/mashro3pdf

ـ كيف عرفت؟ ملامحي متوسطية، وكثيرون يقولون إنني يونانية أو إسبانية.. وربما كابريزية!

اصطباغ وجهها بلون الفراولة، منحه الإذن ليستكمل حديثه:

ـ بل عربية، أنا عربي كذلك.

تطلعت إليه بدهشة، وقرأت اللافتة الصغيرة على صدره «آلدو أبندوناتو».

ـ آلدو، وعربي؟

ـ هذه قصة طويلة.

قاومت فضولها، وأغلقت المناقشة بتوجيه حديثها إلى باولا:

ـ ماذا لديكم هذا العام؟

ـ العطور التي تعرفينها، لكن هذه التشكيلة من الصابون نقدمها للمرة الأولى.

ألقت نظرة على الصابون المعروض فوق مهاد من القش في صناديق خشبية أنيقة، ثم راحت تتأمل بقية المعروضات. تنتقل من عطور النساء إلى كولونيات الرجال، إلى كريمات الحلاقة، لا تستطيع التركيز تحت نظرات آلدو المصوبة نحوها خلسة من بين أهدابه السوداء الطويلة «ما هذا؟ كأنه يضع رموشًا صناعية!» لم تنجح في منع نفسها من تأمل ملامحه التي لوحتها الشمس وجسده الرياضي

fb/mashro3pdf

الـذي يبدو ممشـوقًا، تحت البالطـو الأبيض المحبوك فوق ملابسـه. غادر مكانه، وخطا نحوها.

ـ تريدين شيئًا لبابا؟

ـ بل لخطيبي.

ـ عشريني مثلك؟

نظرت بتحدٍّ، ولم ترد.

ـ أعتذر، إن بدا سؤالي تطفلًا.

ـ إطلاقًا، أشكرك.

أشار إلى المتاح من كريمات بعد الحلاقة:

ـ هـذا النوع للشـباب، وذلـك لأمثالي ممن تجـاوزوا الأربعين، به مضادات لشيخوخة البشرة.

وعاد إلى مكانه بجوار السـيدة. تأملـت خديجة النوعين والتقطت الأخيـر، ومضت تجمـع بعضًا من القوارير النسـائية علـى غير تعيين، ثـم أضافت واحـدة لجمال من النـوع ذاته. وضعتها أمام السـيدة التي أخذت تحصي ثمن المشتريات. قال آلدو:

ـ تركيبة الجاردينيا وزهر الليمون لا تناسبك.

حدّقـت فيه دهشـة، بينمـا ذهب والتقـط زجاجة تجربـة، ودار مرة أخـرى حتى أصبح في مواجهتها، أطلق زخة على قاطع ورقي، وناولها لخديجة:

fb/mashro3pdf

ـ هذا يناسبك تمامًا، مستخلص من ثمانين زهرة برية كابريزية.

تشممته بتوتر لم تستطع معه تقييم العطر؛ إذ أحست بحرارة أنفاس آلدو على جلدها، أومأت موافقة. خاطب بائعة لتحضر لها قارورة. ردت:

ـ آخر واحدة بعناها قبل قليل.

مط شفتيه أسفًا، وأعاد التحديق في خديجة:

ـ ننتج منه كميات قليلة جدًّا، لو أتيتِ في المساء، أو غدًا ستجدين قارورة في انتظارك.

أجابته بعدم اهتمام متعمد:

ـ شكرًا، قد أمُر غدًا صباحًا.

أخرجت بطاقتها البنكية وسلمتها للسيدة التي انتهت سريعًا، وأعادت إليها البطاقة مع حقيبة المشتريات؛ فحملتها، ولوحت للجميع. خرجت تحث الخطى وتتلفت وراءها متخلية عن خطة التمشية في حديقة الدير.

نظرت في ساعتها «لم تزل هناك ساعة كاملة على موعد صالون التجميل». عندما صارت بعيدة بشكل كافٍ بدأت في التمهل وتأمل واجهات محال الملابس، تحفظ في ذاكرتها ما يعجبها، ثم تعاود قراءة اسم المتجر، قبل أن تمضي إلى غيره، وفجأة بدأت الأمطار تتساقط

fb/mashro3pdf

في حبّات كبيرة صاخبة رغم الشمس الساطعة. احتمت تحت مظلة أحد المتاجر، حتى توقف المطر، ثم مضت تتحسس خطوها.

وصلت إلى صالون التجميل في الموعد. ووجدت سيدة خمسينية في انتظارها، نظرت إلى صدرها الفائض من طوق البالطو السماوي، وفكّرت «يمكن أن تروق جمال» ثم استسلمت لدغدغات أصابعها السارحة بين خصلات شعرها.

عندما عادت إلى الغرفة كان جمال مستغرقًا في النوم، أخذت تتحرك بخفة لتغيير ملابسها، لكنه استيقظ، مُرحبًا بها.

ـ كيف حال دُبي الحبيب؟

أجاب ضاحكًا متوجعًا:

ـ يبدو أن الطبيب أعطاني هذا الدهان ليوصلني في النهاية إلى البتر!

نصحته بالاستلقاء في الماء البارد، وأخذت تطمئنه:

ـ لا تقلق، لونها أفضل، المرهم يؤلمك لأنه يتعارك مع البكتيريا.

انطلقت إلى الحمام، أعدت له البانيو، وحضّرت له ملابس داخلية نظيفة، ثم عادت وأخذته من يده. ساعدته على خلع ملابسه، فانساب إلى الماء بحذر. انحنت وقبلته على جبهته، ثم تركته وأغلقت عليه باب الحمام. طلبت خدمة الغرف، وأمرت بغداء في الغرفة. جمعت

fb/mashro3pdf

الستائر، وفتحت باب الشرفة تستطلع إمكانية الجلوس فيها. كان هناك أثر رذاذ خفيف على الطاولة؛ فأحضرت مناديل ورقية وجففتها.

وصل الغداء. أحكمت باب الحمَّام، وقادت النادل إلى الشرفة، وبعد أن صرفته أخرجت مزهرية الليليوم الأصفر المتباهي. ودخلت تستعجل جمال. ساعدته على تجفيف نفسه، وارتداء ملابسه، ومضت أمامه نحو الشرفة، ثم انتبهت إلى إمكانية إصابته بالبرد. قالت معتذرة:

ـ يبدو أنني أخطأت، هل أعيد الأكل إلى الداخل؟

ـ لا تخافي، مناعتي قوية ضد البرد بالذات.

جلسا متواجهين أمام المائدة. شرعت ترفع الأغطية عن الأطباق. بادرها:

ـ أتظنين أني أحتضر؟

أحست بنبرة الأسى في صوته، رغم روح الدعابة التي اجتهد ليُبديها. صارت تعرفه جيدًا، وتدرك أنه يلجأ إلى الفكاهة لإخفاء حزنه. وقفت خلفه، وجذبت رأسه، ثبَّتته بذراعيها إلى ظهر الكرسي، وببطء وضعت شفتيها على شفتيه. ثم التقمت شفته السفلى وأنشبت فيها أسنانها. وبعد أن حررته هتفت به:

ـ الآن صار هناك توازن؛ ندبة فوق وندبة تحت!

fb/mashro3pdf

أخـذ يتحســس شـفته مغتبطًـا. ودارت عائدة إلـى مقعدهـا، بينما تسـترق النظـرات إليه، تتأمل الأسـى الآخذ بالانتشـار علـى ملامحه، وشرعا يأكلان بصمت.

fb/mashro3pdf

26

استيقظت مغمورة بالأسى، تحت إحساس بأنها بصحبة رجل عجوز؛ لأن حالة جمال لم تتحسن على العلاج.

«يبدو أن سوزي كانت محقة» تذكرت نصائح صديقتها التي سبقتها إلى الزواج من رجل مسن «ستكبرين سنة كل يوم، حتى تصبحي في عمر مَن ترتبطين به، ستقاومين كسله وفتوره في البداية، وسرعان ما تجدين نفسك مثله، بعد أن تتسرب إليك شيخوخته»، عندما قالت لها ذلك دافعت خديجة «جمال ليس في سن زوجك، ولم يزل يتدفق حيوية».

طلبت الإفطار، وضعته على طاولة الفوتيه أمام التلفزيون. أخذ كل منهما يغرس شوكته في الطبق ويرفعها إلى فمه بفتات، ثم اكتشفا في اللحظة ذاتها إمكانية التوقف عن هذا التظاهر الذي حوّل الإفطار إلى عمل من أعمال المواساة. أعادت خديجة تغطية الأطباق، وحملتها إلى خارج الغرفة، وعادت تطالع شرود جمال الذي بادرها:

ـ إلى أين ستذهبين اليوم؟

ـ ليس هناك ما يستدعي الخروج.

fb/mashro3pdf

ـ هذا يومنا الأخير، تمشي قليلًا، لو كنت أستطيع لخرجت معك.

بينما تستعد للخروج، أخذت تتأمل تصفيفة شعرها الجديدة، وتذكرت أنه لم يعلق عليها عندما عادت بالأمس. ولم تلبث أن لامت نفسها «كيف سينتبه وهو في هذه الحالة؟» وبسرعة دافعت عن نفسها أمام ضميرها الزاجر «لا ينتبه إلى التفاصيل، كان هذا واضحًا منذ لقائي الأول، لم يُعلق، حتى، على أي من قمصان نومي التي اشتريتها خصيصًا للرحلة».

لم تفارقها الهواجس في الشارع، أخذت تتفحص مواضع قدميها على رصيف الأحجار السوداء في الحارة المنحدرة، وتتذكر عتابها له ذات مرة على عدم إطرائه لفستانها، وقتها أضحكها رده الفوري «الفستان الجيد هو الفستان المخلوع». عندما وصلت إلى الساحة وجدت نفسها تنعطف إلى الحارة المؤدية إلى محل العطور.

خطت إلى داخل المحل تقاوم عرجًا خفيفًا. كان آلدو في مكانه، بجوار السيدة باولا كما رأته بالأمس. مضى باتجاهها، وبادرها بالتحية:

--**Buonjorno.**

وأشار إلى قدمها مستفسرًا.

ـ لا أعرف، يبدو أن هناك جرحًا في إصبعي من هذا الحذاء الجديد.

fb/mashro3pdf

أحضر لها كرسيًّا؛ فجلست، وطلب منها أن تريه قدمها. خلعت الحذاء، والجورب. جلس القرفصاء أمامها، وأمسك أصابع قدميها، جفلت وتذكرت الفنان عاشق الأقدام. أخذ آلدو يتفحص قدمها، ومضى إلى خزانة جانبية وعاد بمطهر ولاصق جروح. انتهى من عمله، وحاول مساعدتها في انتعال الحذاء؛ فالتقطته من يده. أعاد المُطهّر إلى مكانه، وأخرج من ذات الخزانة العطر الذي وعدها به:

ـ عطر الملكة، ليس مجرد اسم اخترعناه.

أخذت كلماته تنساب إلى أذنيها. يحكي لها قصة ابتكار تركيبة العطر مصادفة، عندما زارت إحدى ملكات العصور الوسطى الجزيرة فجأة، ولم يكن أمام الأب المسئول عن الدير إلا أن يجمع لها باقة ضمت ثمانين زهرة من أجمل زهور كابري البرية. وبعد مغادرة الملكة، ظلت الباقة في الماء الذي لم يتغير لمدة عدة أيام، وعندما قام راهب الخدمة بالتخلص من الورد، داهمته رائحة عطرية لم يشم مثلها؛ فذهب إلى الأب الكيميائي الذي اقتفى أثر الرائحة، فاكتشف أنها من الماء العطن، ومنذ ذلك الوقت بدأ تقطير العطر من الزهور الثمانين لباقة الملكة، ولم يزل إنتاجه يتم بالطريقة التي استخدمها الرهبان في ذلك الوقت. لاحظ شحوبًا بوجهها، فنظر في عينيها، وهتف:

ـ يلزمك بعض الهواء الطلق.

fb/mashro3pdf

لـم ينتظـر ردها. أمسـك بأنامـل يمناهـا، أنهضها ومضـى أمامها متمهلًا. أخذت أناملها تنبض كعصفور أسير في راحة صبي.

عندما خرجا من الباب ترك يدها وحاذاها ليقطعا الحارة المنحدرة، مد ذراعه أمامها مثل درع جاهز لحمايتها من السـقوط، أخذت توسـع خطوها مستمتعة بحفيف فستانها بذراعه.

اسـتبقها عابـرًا البـاب متلقفًـا أصابعهـا مـرة أخرى، حتـى هبطت الدرجـات المفضيـة إلـى الحديقـة. سـارا متحاذييـن علـى الممشـى المستوي في الحديقة الشاسعة، أخذت تتأمل مروج الزهور المبتهجة بشـمس كسـول تفترشـها في دعة، والمباني البعيدة المصطفة في خط مسـتقيم، بقبابهـا الصفـراء الباهتـة. رأت البحـر من خـلال الفراغات الضيقـة بين المباني؛ فأدركـت للمرة الأولى أن الديـر يقع على البحر مباشرة. قالت مندهشة:

ـ لم أكن أعرف أن البحر قريب هكذا.

ـ المباني تحجب الرؤية.

ـ مذهلة كابري، في أية لحظة يظهر البحر.

ـ كابـري مثـل الحيـاة. عندما تسـيرين فـي حاراتها الملتويـة تبدو لا نهائية، وفجأة يظهر البحر فتدركين كم هي محدودة.

أعجبها التشـبيه، وأخـذت تتأمل ملامحه مجددًا، ثـم تطلعت إلى المقعد القريب منهما:

fb/mashro3pdf

ـ هل يمكن أن نستريح قليلًا؟

ـ بالطبع، ألا تشعرين ببعض التحسن في قدمك الآن؟

ـ أفضل جدًّا.

جلست، وتقدم آلدو ليجلس إلى جوارها. عادت لتتأمل المكان. همس:

ـ عمري كله هنا.

ـ تقيم هنا طول العام؟

ـ نعم، معمل العطر، هناك، خلف الكنيسة، حيث أعمل منذ طفولتي، وكنت حتى صباي أقيم مع السيدات.

أشار إلى الدير بسبابته، واستأنف:

ـ الدير مختلط، أعني يضم جناحًا للرهبان وآخر للراهبات.

ابتسمت لاستدراكه، وسألته بمرح:

ـ إذن، لماذا كنت في دير النساء؟!

أجاب متجاوبًا مع دعابتها:

ـ لأنني عربي!

ـ قلت لي هذا من قبل، هل أنت جاد؟

سألها:

fb/mashro3pdf

ـ أتعرفين معنى أبندوناتو؟

هزت رأسها نافية، قال:

ـ المتروك، يمكنك أن تناديني آلدو المتروك، إن أحببت!

أومأ بابتسامة رسمها بصعوبة، وفي لحظة غمر الأسى وجهه. سألته:

ـ وكيف أصابتك العروبة؟!

ـ أنا ابن لقاء عابر بين شاب من جدة ومراهقة من قرية زراعية قريبة من سورنتو، تعرفين سورنتو، هنا في مواجهة كابري.

تبدل صوته، صار همسه حزينًا، إذ يقص عليها حكاية الفتاة التي جاءت إلى كابري مع رفيقاتها، يقودهن الحلم برؤية نجوم السينما الذين يتقاطرون على الجزيرة في الصيف، وبدلًا من أن تعود مع رفيقاتها قضت الليلة في غرفة السائح. عندما عادت إلى قريتها في اليوم التالي، ادعت أنها ضلت عن صاحباتها ولم تتمكن من العودة؛ فقضت الليل في الساحة.

أحس بالخجل من اختلاج صوته، فتكلف الابتسام، واستجمع هدوءه:

ـ كان الفلاحون الإيطاليون في ذلك الوقت مثلكم تمامًا، يرهنون شرفهم على عذرية البنات.

fb/mashro3pdf

لم تعلق. وبعد لحظات صمت، استأنف:

ـ عندما اكتشفت حملها عادت لتفتش عن الرجل العربي، لكنها لم تجده، وخافت من العودة إلى قريتها؛ فلجأت إلى الدير. عملت في معمل العطور، وكانت قدور التخمير وقوارير التكثيف أول ما رأت عيناي.

أحس بشرودها فتوقف عن الكلام، وأشار بسبابته إلى جناح النساء، وباغتها:

ـ خديجا! أنت تعرفين ماما.

أحست بالمباغتة لأنه نطق باسمها، فكّرت «تلصص على إيصال الدفع!» لم يُعجبها فضوله، لكنها استعادت طريقته في النطق فغمرها التسامح معجبة بالرنين المميز لاسمها في فمه. عادت من شرودها متذكرة ما قاله، وهتفت دهشة:

ـ لا تقل إنها مدام باولا!

ـ نعم، هي أمي، كلما فرغت من عملي في المعمل، أذهب لأقف معها حتى تنتهي ورديتها ونعود معًا إلى شقتنا في أنَا كابري.

أحست أن التفاصيل أكثر من احتمالها؛ فوقفت، وأخذت تتأمله مجددًا، تبحث عن وجه السيدة باولا، وحصة الرجل العابر في ملامحه. يشبه أمه تمامًا، ولا يبدو الأثر العربي إلا في حاجبيه وأهدابه القوية كالشوك. سألته:

fb/mashro3pdf

ـ حتى الآن لم تعرف أباك؟

ـ تمكنت أمي من التوصل إلى عنوانه بعد ثلاث سنوات من البحث، لكنه أنكرنا، ولم يعترف بي إلا مؤخرًا. زرته في الشتاء الماضي، هو تاجر كبير.

وأخرج هاتفه، وأراها صورة له بالثوب والغُترة والعقال، مع أبيه الربعة.

-Cute.

وألحت عليها لقطة لعمر الشريف في فيلم لورنس العرب.

ـ هل أنت متأكد أن ماما كانت مع هذا الرجل، وليس مع عمر الشريف؟

ردَّ مبتسمًا:

- Grazie mille.

أحست بكلمة الشكر تخرج من شفتيه بهشاشة ومذاق كعكة الليمون التي تشتهر بها كابري، فأعادت التأكيد جادة:

ـ حقيقي، أحسست بالأمس أنني رأيتك من قبل. الآن أدركت أنك تشبه نجم أحلامي.

ـ ربما أشبهه بهذا الشعر الرمادي!

واتسعت ابتسامته، وبدا متشجعًا على استئناف حكاياته، فعاجلته:

fb/mashro3pdf

ـ سأمضي، تركت خطيبي في الفندق، هو مريض قليلًا منذ أمس.

وقفت، ومدت يدها لمصافحته.

ـ هل تسمحين لي برقمك؟

ـ كابري صغيرة، وسنلتقي بالتأكيد.

احمرّ وجهه خجلًا، فأملته الرقم، وقالت شبه معتذرة:

ـ لم أقصد شيئًا، لكن كابري صغيرة حقًّا.

ـ أحب أن أتعرف إلى خطيبك.

ـ ربما أعود معه.

صافحها ثانية، مستبقيًا يدها في يده.

ـ خاديجاه، سنلتقي.

قال مُسلِّطًا نظرته العذبة عليها. هزّت رأسها موافقة، وسحبت يدها، ومضت.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

27

التزام جمال الغرفة لليوم الثاني جعله يشعر ببعض التحسن. سحب كتاب «أصداء السيرة الذاتية» وجلس في الشرفة. قرأ مقطوعة، فأخرى، وأحس نفسه مشتتًا. طوى الكتاب، ووضعه على الطاولة، ثم اقترب بكرسيه من الشارع. أراح جبهته على الإفريز المعدني البارد، يتلصص على صعود وهبوط المارة في الحارة المنحدرة. أحس نفسه زائدًا على عالم صاخب لا يكترث لوجوده، وغمره ضيق يشبه ذلك الذي يستشعره في كوابيس يرى فيها نفسه حافيًا وسط ساحة الجامعة.

فكر في خديجة، بأي منعطف تسعى الآن؟ «هي جزء من هذا العالم، تتناغم معه، وتعرف كيف تستمتع به» أخذ يُشاغل نفسه بمتابعة المارة؛ يحاول تمييز ساكن الجزيرة من الزائر، يتخيل حياة السكان خلال ثلثي العام تحت الأمطار والضباب، يُخمِّن الفرق في العمر بين كل رجل والمرأة التي تمضي بصحبته.

لم ينتبه إلى عودتها إلا بعد أن صارت في وسط الغرفة. تركت أشياءها على السرير، وخطت نحوه:

fb/mashro3pdf

ـ كيف حال دبدوبي العزيز؟

ـ دُبٌّ بمؤخرة قرد.

ـ أنت الآن أحسن، لا تتدلل عليّ.

طوقته فغمر عطرها روحه بالسكينة، جزجزت شحمة أذنه فأحس بالخدر، وبدأ يستشعر انتشار الدم في أطرافه. شرع يدقق النظر في يديه ليرى خلايا جلده تتفتح بدبيب الحياة. تمنى أن تدوم هذه اللحظة إلى الأبد، لكن خديجة توقفت فجأة عن ملامسته، وتجاوزته لتجلس على المقعد الآخر. عاد الأسى يعتصره، فكّر «هل يداهمنا الحزن من الخارج أم ينبع من أرواحنا ويفيض على الأشياء؟»

أخذ يتابع نظراتها المغتبطة إلى الأفق، مختبرًا قدرته على الطفو فوق موجة الكآبة. انتبهت إلى متابعته لها فأشارت إلى تشكيلات الغمام التي تضرب قمة جبل سولارو؛ القمة الأعلى في كابري، وبادرته:

ـ سأطلب الغداء في الغرفة اليوم أيضًا.

ـ يمكن أن نخرج إن أحببت.

ـ سنخرج للعشاء، تكون استرحت أكثر.

قالت، وعادت إلى داخل الغرفة، ورفعت سماعة التليفون. دخل وراءها، ووقف إلى جوارها يداعب خصلات شعرها، بينما تضع

fb/mashro3pdf

تركيزها في الاستماع إلى قائمة الغداء من الموظف على الجهة الأخرى من الخط. عندما وضعت السماعة احتضنها، فانسلت من بين يديه:

ـ دعني أغتسل، لن تحب رائحة عرقي.

ـ لم أشم إلا عطرك، دعيني أشم العرق هذه المرة.

استوقفها، وشرع يتشمم تحت إبطيها، تملصت منه مجددًا، ومضت إلى الخزانة. حملت ملابس نظيفة ودخلت إلى الحمام. سمع صوت إحكامها للباب خلفها؛ فاستلقى على السرير. أخذ في وضع تصورات لمستقبل علاقتهما، مجتهدًا في إقناع نفسه بأن ما يعانيه مجرد توعك عابر.

سمع صوت باب الحمام، ورأى خديجة تخطو نحوه متوردة الوجه، في قميص ينتهي فوق سرتها، مع شورت محكم على خصرها وينتهي فضفاضًا عن منتصف الفخذين، اعتدل وفتح لها ذراعيه؛ فاستكانت في حضنه.

في المساء، غادرا الفندق، سارا متشابكي الذراعين حتى وصلا إلى ساحة أومبرتو، استقلا التاكسي، ومضى بهما في رحلة الالتفاف التي تُبهج جمال، لكنها لم تبهجه هذه المرة، ترجلا عند آخر نقطة تستطيع السيارة الوصول إليها عند المطعم. وجدا رجلًا مع سيدتين يهبطون من تاكسي آخر، متطلعين في كل اتجاه. سألتهم خديجة:

ـ تبحثون عن مطعم الليمون؟

fb/mashro3pdf

أومأ الرجل الذي يقترب من السبعين مبتسمًا، فأشارت إليهم ليمضوا معهما. انعطفوا إلى الزقاق الضيق باتجاه المطعم وأخذوا في التعارف. قال الرجل:

ـ نحن من البرازيل، لكن أصولي لبنانية.

هتف جمال بالعربية:

ـ من لبنان، تتحدثون العربية إذن؟

ـ أنا فحسب، أما زوجتي وابنتنا فلا تعرفان سوى بضع كلمات.

أشار إلى ابنته الأربعينية التي أومأت:

ـ مرحبًا.

كانت الشمس قد غابت للتو، ولم يبدأ الزحام بعد؛ فتكدس عدة نُدل على الباب، وتسابقوا على استقبالهم. سأل أحدهم خديجة:

ـ سنيورة البابي؟

وقادهما، بينما تولى نادل آخر قيادة الأسرة البرازيلية. كان اسم خديجة منقوشًا كالمرة السابقة على قطعة فخار مثبتة على جذع الشجرة الملاصقة للطاولة المحجوزة لهما. أضاء النادل شمعتين معطرتين أخذ الهواء يتقاذف لهيبهما، ثم ذهب وعاد بكأسي الشمبانيا.

طلبت مقبلات يتشاركانها، بارميجيانا وجبن البورتا وموزيريلا مشوية في أوراق الليمون، وطلبت لنفسها المكرونة الصقلية طبقًا

fb/mashro3pdf

رئيسيًّا، ونظرت إلى جمال بعينيها الواسعتين، تعني أنها تعرف طلبه «بستيكا».

لا تعرف لمَ اختارت أن يكون عشاءهما الأخير في مطعم الليمون. سألها، بينما كانا يستعدان للخروج:

ـ أليس ذيل القط أفضل، مع المجانين؟

أجابته معابثة:

ـ هل وقعت في غرام النادلة القرعاء؟

جاءت المقبلات، مع دورق النبيذ المعتاد. شرعا يتذوقان. أشارت إليه:

ـ انظر من هنالك!

كان العجوز السكندري النابوليتاني، مع سيدة في مثل سنه. أبدت خديجة إعجابها بهما:

- Cute.

كأنها استدعته بتعليقها، قام الرجل واتجه نحوها:

ـ كيف حال الفنانة الجميلة؟

ـ بخير. السيدة التي بصحبتك جميلة.

ـ شكرًا، ستحب أن تسمع هذا منك.

fb/mashro3pdf

ومد يده باتجاهها، فذهبت معه إلى طاولته، قدمها إلى رفيقته العجوز:

ـ أجمل فنانة عندنا في مصر.

مدت لها المرأة يدها، وقالت:

ـ أنت وردة، تشرفت.

ردت خديجة:

ـ وأنت جميلة جدًّا، قلت له هذا.

ابتسمت السيدة، وانحنت خديجة تحييهما، وعادت.

بادرت جمال:

ـ حلوة البرازيلية؟ رأيتك تنظر إليها.

ـ حقًّا نظرت، لكن إلى العائلة كلها، وليس إلى السيدة الأصغر.

ـ لكنها جذابة، لا تنكر.

ـ نعم، تشبه جوليا روبرتس. جذابة إجمالًا، رغم أن كل شيء في وجهها فظيع وحده.

ـ أنا أيضًا، قابلت أمس شابًّا ليس فيه عيبة!

سألها مُستنفرًا:

ـ أعجبك؟

fb/mashro3pdf

ـ مُهجن، ومثير مثل البرازيلية.

وصل النادل بالطبقين الرئيسيين؛ فصمتا. سحبت خديجة شوكتها، شكت قطعة مكرونة وتذوقتها، بينما جلس جمال صامتًا. بادرته:

ـ اختبر البستكة، لتعطني قطعة إن كانت جيدة.

غرس شوكته وسكينه في كتلة اللحم الضخمة، وقال دون أن ينظر إليها:

ـ كل ما يقدمونه جيد.

جز لها قطعة نقلها إلى طبقها، وأخذ يأكل صامتًا متثاقلًا:

ـ أكملي، أحب أن أسمع عن فتاك المهجن.

- اسمه آلدو.

وغمزت معابثة؛ فلم يبتسم. ودارت، وقبلته على خده، ثم عادت إلى مقعدها، ومدت يدها تتلمس يده:

ـ لو كان هناك شيء، ما كنت لأحكي لك.

مد يديه محتضنًا يدها، لكن الفضول جعله يلح عليها لتكمل. شرعت تحكي، وعندما انتهت لم يُعلق.

ـ ألا تصلح قصته فيلمًا؟

ـ بل يصلح حبيبًا.

fb/mashro3pdf

ـ أُحبك يا دُبي، ولا أستطيع حمل بطيختين؟

لم يبتسم لدعابتها، وبعد لحظات سألها:

ـ هل رأيته أمس فقط؟

ـ رأيته أول أمس، وأمس كذلك عندما عدت لأخذ عطر الملكة الذي لم أجده.

ـ لم تعودي من أجل العطر، بل من أجل آلدو.

ـ ليس صحيحًا.

ـ في علم الإجرام، نقول إن الجاني يعود دائمًا إلى مسرح الجريمة.

لم تعلق، فعاد يستجوبها:

ـ لماذا لم تحكِ لي أمس.

ـ لم تأتِ مناسبة.

أخذ يصب لنفسه النبيذ، يجرع حتى فرغ الدورق. أشَّر طلبًا للفاتورة. وعندما جاء النادل، أوصاه على تاكسي. بعد لحظات عاد الرجل، وأخبرهما:

ـ التاكسي رقم 23 سيصل بعد ثلاث دقائق.

fb/mashro3pdf

نهضا للمغادرة. التقت عيونهما مع الأسرة البرازيلية، تبادلا معهم تلويحات الوداع، ثم لوّحا للعجوز السكندري، وخرجا ينتظران في الدحوة التي تستدير فيها السيارات.

كان البدر يتوسط السماء عاليًا، تمضي من تحته سحابات مسرعة تمزّج مستويات الإضاءة فيضيء وجههما، ثم لا تلبث العتمة أن تغمرهما. عندما وصل التاكسي، توجه كل منهما إلى أحد البابين الخلفيين، وجلسا متباعدين. التفت السائق إلى جمال، وبادره:

ـ ابنتك جميلة.

رد بحرج:

ـ صديقتي.

اعتذر السائق، وعمَّ الصمت.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

28

أخذا يبدلان ملابسهما في صمتٍ وتحفُّظ مثل غريبين اجتمعا في نُزُل للعابرين. ارتدت خديجة بيجامة حريرية بيضاء محبوكة عليها؛ فبدت أكثر صبيانية، سبقته إلى الحمَّام، وعندما عادت استلقت في الجهة التي تفضلها من السرير. اتخذ جمال دوره في طقوس ما قبل النوم، وعاد ليستلقي في الجهة الأخرى.

بدأ أثر النبيذ يتبدد من رأسه، بينما يتزايد الألم أسفل ظهره مباعدًا بينه وبين النوم، لكنه ظل محتملًا. لاحظ أن خديجة لم تنم هي الأخرى، وظلت تتقلب بحثًا عن وضعية تريحها. زحف باتجاهها؛ فزحفت مبتعدة. جمد في مكانه، ثم برم نفسه في موضعه بهدوءٍ مستقبلًا السقف، وأدار شريط حياته وئيدًا: بدت أيام الطفولة أكثر نصوعًا، أخذ يتذكر لحظات بعينها، واكتشف أنه يتذكر أسماء الجارات بشكل واضح، يستعيد مداعبات بنات الجيران الناضجات له، وضحكهن من خجله، مع التقدم في العمر صارت الصورة تبهت شيئًا فشيئًا، وتتزايد الفجوات بين الوقائع. برقت في رأسه مقولة إميل سيوران، الفيلسوف الذي اكتشف كتبه منذ عامين فقط «ننبش في ماضينا لأن تقليب الذكريات أسهل من تقليب الأفكار».

fb/mashro3pdf

بعد نحو ساعة، أدرك أن خديجة نامت، من انتظام تنفسها، فجمد في استلقائه، بينما رأسه يصطخب بمحاولات مطابقة الوجوه مع الأسماء، وترتيب الوقائع التي تختلط في فوضى، وتدقيق شهود كل واقعة. ولم يعرف متى بدأ التنميل في رأسه الذي سحبه إلى نوم قلق.

التقط سماعة هاتف الغرفة بعد الرنة الأولى، وأخذ يستمع إلى رسالة الإيقاظ الآلية. لم تشعر خديجة بتليفون الغرفة، ولا بتكات وصول رسائل الواتس آب على تليفونها الملقى في المسافة الفارغة بينهما من السرير. كانت نائمة؛ إحدى يديها على الوسادة أسفل رأسها، والأخرى مستريحة فوق خدها، بينما يبدو جسدها الدقيق تحت اللحاف مقوسًا كهلال. نهض وأزاح الستارة، وعاد يتأملها كأنما يراها للمرة الأولى. حرَّكت يدها تخفي عينيها من الضوء. خفق قلبه للأصابع النحيلة الناعمة. تحركت يدها وسقطت بجانبها؛ فرأى الارتخاء الهني لجفنيها الواسعين، والأثر الوردي لأصابعها على وجنتها، ولكزه في قلبه إحساس بأن هذا الجمال لا يخصه.

هزَّها برفق، فانقلبت على ظهرها، وتمددت تحت الغطاء. عاود تأمل وجهها «جمالها مثل فكر سيوران، لامع ومؤلم»، فتحت عينيها وجفلت من اصطدام نظرتها بنظرته. حيَّته، ورفعت نفسها وجلست مستندة إلى رأس السرير. التقطت تليفونها، استعرضته بسرعة ووضعته على الكومودينو، ثم مضت إلى طقوسها الصباحية.

fb/mashro3pdf

تناول تليفونه، لم يجد رسائل من زينب. خرج إلى الشرفة وهاتفها. جاءه صوتها مشرقًا، طمأنته على أخويها، وأخبرته بأنها وخطيبها حجزا قاعة لحفل عرسهما.

ـ بعد أسبوعين يا أبيه. هل ستعود اليوم؟

أحس بالغبطة لأنها تتذكر موعد عودته، وأجابها:

ـ بالليل، في التاسعة.

ـ بالسلامة يا أبيه، انبسطت؟

ـ تمام، تمام.

أنهى المكالمة شاعرًا بالارتياح.

خرجت خديجة من الحمام وشرعت تخلع بيجامتها. وقف يتأملها. عاجلته:

ـ أمامنا أقل من ساعتين.

أومأ موافقًا، ومضى إلى دوره في الحمَّام.

ظهرت في المطعم وجوه جديدة، واختفت وجوه، وبقي النُّدُل كما هم، بالابتسامات نفسها والترحيب الأنيق الذي يقابلونهم به كل صباح. اقتربت الشقراء الفارعة، وتلت عليهما ما سيطلبون:

ـ دوبل اسبريسو وشاي إنجليش بريكفاست، ولفافة أومليت.

fb/mashro3pdf

أومأ جمال بالموافقة، وفكّر «حفظوا ما نريد لحظة المغادرة، الفندق مثل الحياة!». أراد أن يُسر إلى خديجة بملاحظته، لكنها كانت جامدة. قامت إلى طاولة العرض، وأعدت طبق أجبان مع سلطة لجمال، واكتفت بقطعة جبن ريكوتا مع عسل أبيض وكرواسو لنفسها. عادت ووضعت طبقه أمامه، دون أن تقول شيئًا.

أخذ يتطلع إلى الأفق. السحب المسافرة كما يراها كل صباح، والشمس المراوغة ذاتها، وقمة الجبل التي تنطح السماء والبيوت الغارقة بين الخضرة، كل شيء في مكانه، لكنه ليس مبهجًا، عاد إلى تذكر مشادة الأمس «هل كنت محقًا في غيرتي؟».

نبهته خديجة:

ـ لا بد أن نصعد لتحضير الحقائب.

عادا إلى الغرفة، وشرع كل منهما يلتقط أشياءه ويرتبها في حقيبته. هاتفت خديجة الاستقبال، وبعد دقائق وصل الحمّال وسحب الحقيبتين الكبيرتين.

خلف مكتب الاستقبال وجدا موظفًا واحدًا لم يصادفاه من قبل. أنهيا إجراءات مغادرة الفندق، ومضيا هابطين نحو ساحة أومبرتو، ثم انعطفا يمينًا إلى محطة القطار المنزلق.

عندما وصلا إلى رصيف المرفأ وجدا الحمّال واقفًا ينتظرهما بالحقيبتين. مضى أمامهما حتى صار في مواجهة الجسر الخشبي

fb/mashro3pdf

الممتد داخل الماء. أخذت العبّارة تتلمس مكانها، ثم مدت لسانها ليلتحم بالجسر. جرّ الحمال الحقيبتين، وسارا خلفه. أودع الحقيبتين في بطن العبّارة الضخمة الأقل أناقة من تلك التي وصلا على متنها، ولوّح لهما مودعًا.

كان سلم السطح مغلقًا بحاجز، بسبب توقع سقوط أمطار؛ فدخلا إلى الصالة الضخمة، سارت خديجة حتى توقفت أمام صفٍّ خالٍ من المقاعد، جلست بجوار النافذة تتطلع نحو الجزيرة، تبعها جمال، وجلس في المقعد الملاصق. أخذ يتطلع إلى حيث تنظر، وسألها:

ـ تنتظرين آلدو؟

التفتت إليه، وأجابت حانقة:

ـ ياه، وحفظت اسمه؟!

ـ لا تقلقي، سيأتي في اللحظة الأخيرة، لتتحقق أمثولة كابري.

لم ترد، وأشاحت بنظرها تنظر مجددًا نحو الجزيرة عبر الزجاج الرصاصي المغبّر.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

صدر للكاتب

1. حدث في بلاد التراب والطين (قصص) ـ القاهرة ـ 1992.

2. مدينة اللذة (رواية) ـ القاهرة ـ 1997.

3. مواقيت البهجة (قصص) ـ القاهرة ـ 1999.

4. الأيك في المباهج والأحزان (نصوص) ـ القاهرة ـ 2002.

5. غرفة ترى النيل (رواية) ـ القاهرة ـ 2004.

6. الحارس (رواية) ـ القاهرة ـ 2008.

7. كتاب الغواية (رسائل) ـ 2009.

8. ذهب وزجاج (بورتريهات) ـ 2011.

9. بيت الديب (رواية) ـ 2011.

10. العار من الضفتين.. عبيد الأزمنة الحديثة في مراكب الظلمات (صحافة استقصائية) ـ القاهرة ـ 2011.

11. البحر خلف الستائر (رواية) ـ 2013.

12. السماء على نحو وشيك (قصص) ـ القاهرة ـ 2015.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

«كانت نائمة، إحدى يديها على الوسادة أسفل رأسها، والأخرى مستريحة فوق خدها، بينما يبدو جسدها الرهيف تحت اللحاف مقوسًا كهلال. نهض وأزاح الستارة، وعاد يتأملها كأنما يراها للمرة الأولى. حرَّكت يدها تخفي عينيها من الضوء. خفق قلبه للأصابع الدقيقة الناعمة. تحركت يدها وسقطت بجانبها؛ فرأى الارتخاء الهني لجفنيها الواسعين، والأثر الوردي لأصابعها على وجنتها، ولكزه في قلبه إحساس بأن هذا الجمال لا يخصه».

***

هذه الرواية تجمع باحترافيَّةٍ بين قلبين تفصل بينهما سنواتٌ من الشجن والتجلي، عَبْرَ لُغةٍ رصينةٍ، ونسيجٍ سردي متين، وإحساسٍ رشيقٍ، يكاد يلمس تخوم الروح، يُحلِّق في فضاء تلك العلاقة الاستثنائية، بين محامٍ مخضرمٍ، سرقته دوامات الحياة، فلم يخرج منها إلا بصروحٍ أقرب إلى الأوهام، وفتاة محاطة بإحباطات الفقد، مندفعة بلهفة الفضول إلى علاقة تبدو لمَن يراها من الخارج غير منطقية، تاركة للواقع فرصة أن يقول كلمته الأخيرة!

روائي مصري. ولد في 23 ديسمبر 1961، تخرج في كلية الإعلام بجامعة القاهرة عام 1983. أصدر اثني عشر كتابًا: خمس روايات، وثلاث مجموعات قصصية، وأربعة كتب نصوص متنوعة. فازت روايته "بيت الديب" بجائزة نجيب محفوظ عام 2012 وصدرت مترجمة عن دار نشر الجامعة الأمريكية بالقاهرة، كما تُرجم له إلى الإيطالية كتاب "العار من الضفتين" ورواية "مدينة اللذة".

الدار المصرية اللبنانية

للشراء عبر موقعنا
store.almasriah.com

9 789777 951012

fb/mashro3pdf